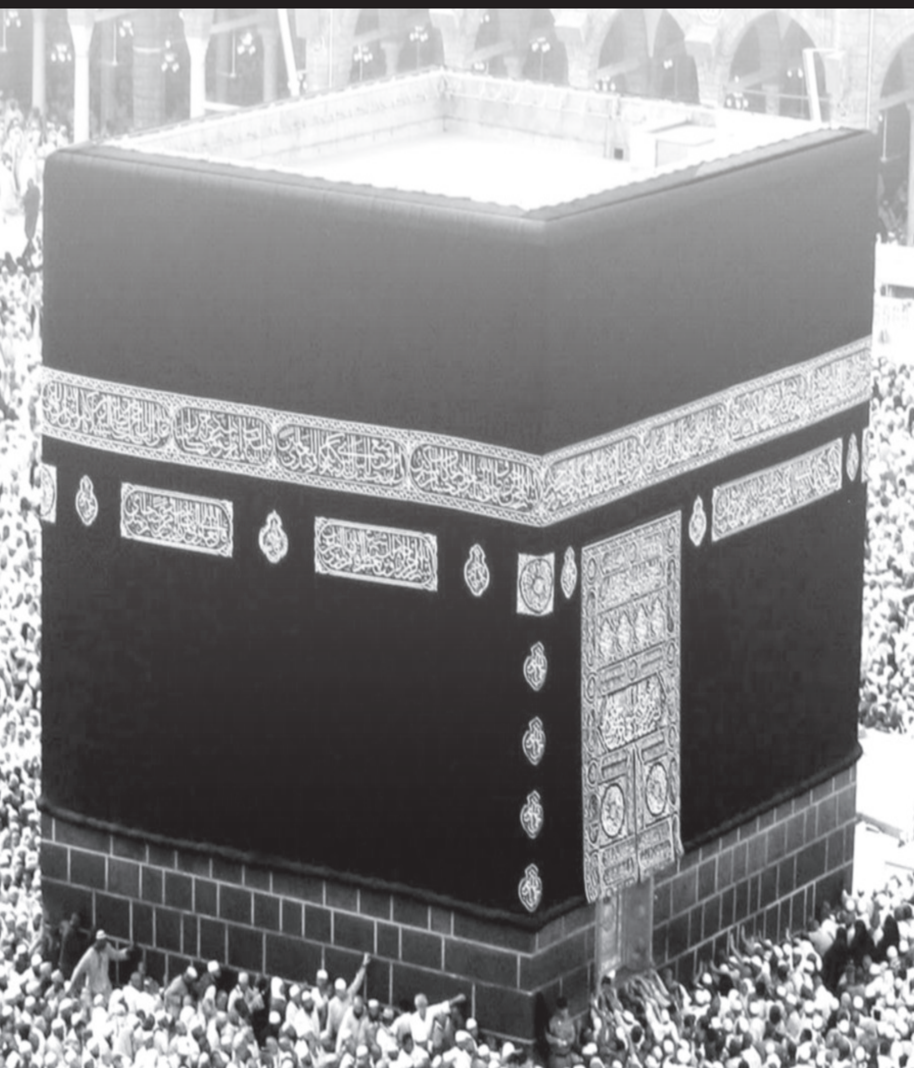
هجرة النبي ﷺ

أحداث وتأملات





اسم الكتاب: هجرة النبى ﷺ.. أحداث وتأملات

التأليف: إيمان مغازي الشرقاوي

موضوع الكتاب: سيرة ودعوة

عدد الصفحات: 240 صفحة

عدد الملازم: 15 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2016/19464

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 573 - 5

1437 هـ
2016م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 0115280653 - 01012355714

هجرة النبي صلى الله عليه وسلم

أحداث وتأملات

إيمان مغازي الشرقاوي

دار البشير
للثقافة والعلوم

الإهداء

إلى والدي الحبيب – يرحمه الله تعالى– وقد رأيتُ فيه المهاجر إلى الله تعالى في أفعاله وأقواله، وفي حركاته وسكناته حتى لقي ربه عز وجل، ولسانه يلهج بحمده وشكره وذكره– ولا أزكي على الله أحدًا– عسى ربي أن يكرمه ويمنّ عليه بثواب ذلك العمل، ويجعل كلَّ حرف من حروف كلماته الصغيرة كأمثال الجبال أو يزيد في ميزان حسناته عند أرحم الراحمين.

وإلى والدتي الحبيبة – يرحمها الله تعالى– وقد هاجرت هي الأخرى بترك ما حرم الله عز وجل ونهى عنه، والمسارعة لما فيه رضاه؛ لعل الله يرفعها بهذا العمل درجات في جنة الرضوان.

وإلى زوجي الكريم – حفظه الله– رفيق الطريق، الذي سار معي جنبًا إلى جنب في أرض المهجر، وساعدني على أن أكون جزءًا منه، وأنا أراه كلَّ حين يقدم من نفسه مثالَ خيرٍ لدينه وهويته وانتمائه، بدماثة خلقه وحسن معشَرِه وحب الخير لكل الناس من حوله.

وإلى أولادي الأحباب– بارك الله فيهم– وقد شاء ربنا لهم أن يكبروا ويترعرعوا وينشئوا في أرض المهجر، حتى صاروا جزءًا من نسيج ذلك المجتمع ولبنة من لبناته، عسى أن يكون كتابي هذا دافعًا لهم لصدق النية

وحسن العمل ونفع البشر في أي مكان وُجدوا فيه دون أن يفقدوا هويتهم العظيمة لخير أمة، ونسبهم الشريف لأكمل دين، واقتداءهم الحسن بأعظم مهاجر في تاريخ البشرية إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها.

وإلى إخوتي الأحباب وأخواتي الحبيبات، وقد جمعتنا رحمٌ واحدة، وضمنا بيت واحد، عشنا تحت سقفه في حضن والدينا اللذين ربيانا على هجر ما يكره اللهُ عز وجل.

وإلى أخواتي وصديقاتي الحبيبات في أرض المهجر، وقد انصهرنا في بوتقة واحدة ملؤها الحب والأمل والتفاؤل، فكنّ لي عونًا على الثبات على طاعة الله وهجر معصيته.

وإلى كل من أُخرِج من وطنه رغمًا عنه، أو خرج مهاجرًا إلى الله داعيًا إليه، أو طالبًا للعلم، أو ساعيًا للرزق الحلال، علّه يجد فيه سلواه، فتسير به عجلة الحياة ويهدأ باله ويصبر، «ومن يتصبر يصبّره الله».

وإلى كلِّ من هاجر إلى الله بقلبه، وهو لا زال في مكانه لم يتزحزح عنه طرفة عين، فهجر ما نهى الله عنه، وتحرَّى رضا مولاه عسى أن يعينه على عوائق الطريق.

إليهم جميعًا أهدي هذا الكتاب..

إيمان مغازي الشرقاوي

برمنجهام.. بريطانيا

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله.. أصدق الداعين إلى سبيل الله، وأخلص المهاجرين له وإليه..

وبعد،

(هجرة النبي ﷺ.. أحداث وتأملات)

عنوان هذا الكتاب.. سعدت وأنا أخطُّ حروف كلماته التي استضاءت واستنارت بخير سيرة وأزكاها، ومع كل حرف منها أزداد حبًّا لهذا النبي الكريم، الذي قدَّم لنا خير قدوة وأعظم مثال في حب الله تعالى والدعوة لدينه.

وقد حاولتُ في هذا الكتاب إلقاء الضوء على أحداث هجرة النبي ﷺ، والتفكر في تلك الأحداث بطريقة تربطها بالواقع المعاصر، واستخلاص العبر والدروس المستفادة منها، والتي أتمنى أن تكون منهجًا في حياة كل

مسلم يطبقه ويعيشه في حياته اليومية.. مع نفسه وفي بيته، في معاملته أهله وولده وصحبه ورفاقه، في الشارع، ومع الناس من حوله، مع صديقه وعدوه، في مجتمعه ومجتمع غيره.

والمسلم الحق في حال هجرة مستمرة ما دام حيًّا، ولِمَ لا؛ وقد هاجر إلى الله منذ أن آمن به ربًّا وإلهًا واحدًا لا شريك له، فهجَر الكفر والشرك وكلَّ ما يقدح في عقيدته وينافي توحيده؛ امتثالًا لأمره، واستجابة لدعوة نبيه ﷺ، الذي دعانا إلى هذه الهجرة الدائمة.

وقد ضرب لنا النبي ﷺ المثل والقدوة، فقد هاجر هو إلى ربه أولًا، وكانت هجرته أكمل هجرة. ثم دعا أصحابه- رضي الله عنهم- إليها؛ فهاجروا من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن ضلالات الجهل إلى هداية العلم، ومن أدناس المعاصي إلى طهارة الطاعات، ومن ضعف الفرقة إلى قوة الوحدة، ومن ذل الاستضعاف إلى عز التمكين. كما هاجروا فرارًا بدينهم، ودعوة إلى هذا الدين ونشرًا له، فكانوا بحقٍّ أعظم مهاجرين وأحسن قدوة للعالمين بعد النبي ﷺ. فلنتمثل هذه القدوة الطيبة في حياتنا وذلك بهجر كل ما نهي الله عنه وكرهه وحرمه، لنلحق بهم جميعًا في دروب الهجرة المتعددة.

لذا؛ فإنني أرجو أن نعيش جميعًا مع أحداث هجرة النبي ﷺ بقلوبنا وعقولنا وأرواحنا وجوارحنا. نتفكر فيها ونحياها. نجدد بها إيماننا ونصلح بها أعمالنا، ونتغير بها إلى أفضل حال يحبه الله ورسوله ﷺ.

وأشكر الله تعالى أولًا وآخرًا على أن يسَّر لي هذا العمل، ووفقني إليه وهيَّأ لي أسبابه، وأكرمني بكتابة هذه السطور المتواضعة عن هجرة النبي ﷺ.

ثم في النهاية أشكر من أعماق قلبي كلَّ من كان له فضل عليّ في تعليمي وتشجيعي على الكتابة والنشر؛ لتشارك المرأة في الدعوة إلى الله بقلمها وفكرها.

والشكر موصول لقارئ هذا الكتاب.

إيمان مغازي الشرقاوي

برمنجهام.. بريطانيا

ذو القعدة 1437هـ

أغسطس 2016م

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الهجرة.. أحداث وعبر



(1)
خَلوة فكريّة مع الهجرة النبويّة

هذه دعوة لكل من أراد أن يَرقى تفكيره، وينضج فكره، وتنقح خواطره.. دعوة لصحبة رسول الله ﷺ في هجرته المباركة، والتجول في أروقتها، والتفكر في أرضها، والسياحة في سمائها، ففيها غذاء الفكر، وفيها دواء السقم، وهي للمُحِبِّ شفاء.

لقد كانت هجرة النبي ﷺ ولا زالت كتابًا حيًّا يُقرأ، وتاريخًا خالدًا يُدَرَّس، وقدوة مثالية تُتَّبَع، يرقى معها تفكير الإنسان إذا عاش في رحابها وخلا بها خلوة خالصة يبغي منها تجديدَ إيمانه وإصلاح حياته، إنها خلوة المحب بحبيبه؛ حتى تقوى روحه وينمو عقله ويثبت قلبه ويشتد ساعده، خلوة له منها لفكره الغذاء، ولتفكيره النضج والنماء.

لذا؛ فإن على المسلم أن ينظر صادقًا في هذه الهجرة المباركة نظرَ عبَر وانتفاع، فهي ليست حدثًا عابرًا كبقية الأحداث. إنها تاريخ أمّة وخاتمة رسالة، ومجيء حق وزهاق باطل، هداية أرواح وتربية وبناء، تأليف قلوب وبذل وعطاء، من يعِشْ معها يجد بين ثنايا أحداثها العلاج الشافي والجواب

الكافي، فكم فيها للفكر من غذاء وقوة، ونشاط وصحة، وكم فيها من علاج لأسقامه ليشفى ويستقيم.

ألا فليراجع كلٌّ منّا نفسه ويختبر أفكاره ويقيّم مفاهيمه، وليُعِد التفكير من جديد في أحداث هذه الهجرة بما يناسب حاله ومقامه، فسيجد فيها هدفه ومبتغاه.

ليتني فيها جذَعًا حين يُخرجكَ قومك

ولعلنا نعيش معها من البداية وذلك الحدث العجيب؛ حيث السيدة خديجة رضي الله عنها، وابن عمها ورقة بن نوفل وحديث مع النبي ﷺ حين نزل عليه الوحي، فرجع إليها يرتجف (فقال: "زملوني زملوني" فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال: يا خديجة ما لي، وأخبرها الخبر، وقال: «قد خشيت على نفسي»، فقالت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكَل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة أخو أبيها، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ ما رأى؛ فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعًا

(حيًّا) حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجيّ هم؟» فقال ورقة: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا)[1].

قبل الهجرة

وقد عاش النبي ﷺ في مكة صادقًا أمينًا، لم تؤخذ عليه كذبة واحدة، لم يخُن ولم يغشّ قط، سيرته مع الجميع تشهد بحسن خلقه وكريم فعاله، ألم يكونوا يلقبونه الصادق الأمين؟ يقولون هذا الأمين، جاء الأمين، رضينا بالأمين.. إلى أن بُعث ﷺ نبيًّا رسولًا، فتبدّل حالهم وانتكسوا، وتضاربت أقوالهم فيه واختلفوا! وإذا هم يصفونه بالسحر والكذب، كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾[2]. ويقولون إنه شاعر ويتهمونه بالجنون، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾[3]. يقولون ذلك وهو الكامل المعصوم ﷺ.

وها هو الحبيب ﷺ، إنه قائم بينهم يدعوهم إلى الإيمان بشتى الوسائل وأحسن الطرق، يدعوهم بالترغيب والترهيب، وبالتشويق والتخويف، وظل على

---

(1) (صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، ج6).

(2) (سورة ص، الآية: 4).

(3) (سورة الصافات، الآية: 36).

ذلك سنين عددًا، يدُلهم على الهداية بصبر وحكمة وموعظة حسنة ودفعٍ بالتي هي أحسن، أوذي أصحابه أمام عينيه، فصدق عليهم قول ربنا سبحانه: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾[1]، وهو لا يملك دفع الضر عنهم، إلا أن يحثهم على الصبر والتصبر: «اصبروا آل ياسر، موعدكم الجنة»[2].

تحمّل الأذى فلم يجزع أو ييأس، وعُودِيَ فما انتقم، قالت له عائشة رضي الله عنها: (هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قولَ قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملكَ الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا»[3].

(1) (سورة آل عمران، الآية: 146).

(2) (الراوي: عثمان بن عفان، المحدث: الهيثمي، المصدر: مجمع الزوائد، وصححه الألباني).

(3) (صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ونادوا يا مالك، رقم الحديث: 3059، ص1180).

كلمة واحدة

وقد ظل النبي ﷺ معهم في مكة ثلاث عشرة سنة من عمر الرسالة، دعاهم إلى الله سرًّا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، كان حريصًا على هدايتهم أشد الحرص، حزينًا على عدم استجابتهم غاية الحزن، فيتنزل عليه القرآن ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[1] وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من المشركين، كما قال تعالى ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾[2]، وكقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[3] أي: قاتل نفسك ومهلكها مما تحرص وتحزن عليهم.

وعلى قدر حرصه عليهم استقبلوا دعوته بالجحود والإيذاء، وقابلوا صبره بالتهكم والاستهزاء، وحبه بالبغض والعداء؛ حيث تعطلت عندهم آلات الإبصار وانطفأ نور البصيرة، فقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[4].

كان يدعوهم إلى كلمة سواء، عليها مدار صلاحهم وصلاح حالهم، لكنهم ناصبوه العداء.. كلمة ضرب الله لها مثلًا مشوقًا في القرآن، فقال:

---

(1) (سورة الشعراء، الآية: 3).
(2) (سورة فاطر، الآية: 8).
(3) (سورة الكهف، الآية: 6)
(4) (سورة الأنفال، الآية: 32).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[1] قال ابن عباس: إنها شهادة أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد وابن جريج: الكلمة الطيبة: الإيمان[2].

لكن مشركي مكة أصروا على عنادهم، وعطلوا عقولهم وجوارحهم عن النظر والتفكر في هذه الكلمة الطيبة، وتعصبوا لرأيهم وفكرهم وكبريائهم، وجاههم وسلطانهم، وحسدهم وبغيهم، وتقليدهم الآباء في باطلهم، فأخذتهم العزة بالإثم، وما أعطوا أنفسهم الفرصةَ للتخلص من كل ذلك، وهذا هو التعصب الممقوت، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: (مرض أبو طالب فجاءته قريش، وجاءه النبي ﷺ وعند أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ قال: إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم الجزية. قال: كلمة واحدة. قال: يا عم، قولوا لا إله إلا الله. فقالوا: إلهًا واحدًا!! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق. قال: فنزل فيهم القرآن ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ..﴾ إلى قوله ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾[3].

(1) (سورة إبراهيم، الآية: 24)

(2) (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج9، ص314).

(3) (سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة ص، رقم الحديث: 3232، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح).

«فاصبر لحكم ربك»

روى عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: (بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمعُ قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله، حتى إذا سجد، وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلقٌ إلى فاطمة عليها السلام، وهي جويرية، فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجدًا، حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسُبّهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش. ثم سمَّى: اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد». قال عبد الله: فوالله، لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب، قليب بدر، ثم قال رسول الله – ﷺ: وأتبع أصحاب القليب لعنة)[1].

وبرغم الإيذاء الشديد الذي تنوعت أساليبه وتعددت أشكاله واختلفت أوقاته؛ إلا أن الله تعالى أمرَه بالصبر والثبات والاستمرار في الدعوة، حتى

(1) (صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب سترة المصلي، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئًا من الأذى، رقم الحديث: 498).

تقوم عليهم الحجة وتبلغهم الرسالة، وتلك هي مهمته ﷺ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾. و﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ..﴾ والبلاغ يحتاج لزاد، ومن هنا كانت تتنزل عليه الآيات ترشده وتقويه وتثبته.. ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[1]. أي (فاصبر على ما حكم به عليك ربك من تبليغ الرسالة، واصبرعلى أذى قومك لك وتكذيبهم ولا تعجل ولا تغاضب، فلا بد من نصرك، فإن الله سيحكم لك عليهم ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة. وقال قتادة: إن الله تعالى يعزي نبيه ﷺ ويأمره بالصبر، ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت[2]. وذلك أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية نينوى – وهي قرية من أرض الموصل – فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث[3].

(1) (سورة القلم، الآية: 48)

(2) (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج18، ص233، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج8، ص201).

(3) (تفسير ابن كثير، ج5، ص366).

(2)
المؤامرة

ظل النبي ﷺ في مكة يرسي قواعد التوحيد بدعوته إلى شهادة لا إله إلا الله وأنه رسول الله، كانت هذه الكلمة ولا زالت قولًا واعتقادًا هي مفتاح الإيمان بل هي الإيمان نفسه، وما عداها تابعٌ لها كثمرة من ثمراتها. لذا فقد حاول معهم بشتى الطرق السلمية، وكان حريصًا على أن يبني هذا الأساس فيهم أولًا، ويرسي في قلوبهم قيمًا ومفاهيم لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، ليكمل بقية البناء على قواعد متينة وأسس ثابتة، إنه يعلمنا ما يسمَّى الآن بفقه الأولويات، وفقه الواقع، فواقعهم كان يعجُّ بالوثنية والشرك، فكان المدخل الرئيس إلى عبادة الله وحده هو شهادة التوحيد الخالصة، ثم يأتي العمل بمقتضاها. وقد استغرق ذلك من نبينا ﷺ زمنًا طويلًا إذ استمر طيلة ثلاث عشرة سنة، وهو على هذا الحال داعيًا إلى الله، حيث آمن به من آمن، فنال شرف الصحبة والنصرة على المستوى الفردي، كما صدّ من صدّ فحُرم.

لذا؛ فلا بد لكل داعية أن يبدأ من حيث بدأ رسول الله ﷺ، وألا تشغله سفاسفُ الأمور عن معاليها، بل يجب أن يدعو إلى دخول الإسلام من بابه أولًا، ويصحح العقيدة وينقيها مما يقدح فيها حتى يستقر الإيمان

في القلوب، ثم يتجول بعد ذلك في غرفاته وحجراته المختلفة التابعة له، وعليه ألا ييأس من طول المكث بين الناس داعيًا، وألا يترك العمل لقلة المستجيبين له، أو يستعجل الثمرة فينفر المدعوين ولا يبشرهم ويتأفف منهم أو يضجر، بل لا بد من الصبر عليها حتى تنضج، وقد قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا، خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[1].

شرف النصرة والمؤازرة

وعندما دعا النبي ﷺ أهل مكة قوبلت دعوته - كما ذكر في كتب السيرة - بالاستهزاء والتحقير، والإيذاء والتعذيب، وأوذي فيها - وهي بلده وأحب البقاع إلى ربه عز وجل - ومن المحزن حقًّا أن الذين آذوه كانوا من قومه وعشيرته كعمه أبي لهب، وكانوا من جيرانه وأهل بلده وهم من نشأ بينهم وترعرع وعاش على أعينهم صادقًا أمينًا، ومع ذلك فقد اشتد إيذاؤهم له، فعجبًا لهؤلاء القوم! ألم يأتمنوه على ودائعهم ونفائسهم دون غيره، فلماذا لم يصدقوه ويأتمنوه على الرسالة، أفيصدق معهم ويكذب على ربه، حاشاه أن يفعل ذلك، فهو كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[2].

(1) (صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب...، رقم الحديث: 3498).

(2) (سورة النجم، الآية: 3).

لقد فات هؤلاء شرف النصرة والمؤازرة، وإن تحوَّلَ بعضهم فيما بعد إلى الإيمان، كما لم يكن لرؤوس القوم منهم فضيلة السبق في احتضان النبي ﷺ ودعوته، كأبي سفيان، وأبي جهل، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، بل ها هو أبو جهل يؤكد إصراره على الكفر حسدًا وبغيًا، فيقول (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه)[1].

فلما تولَّوا عنه ولم ينصروه استبدل الله تعالى بهم الأنصار الذين لم يكونوا من أهل مكة، لكنهم صاروا خيرًا منهم لسرعة استجابتهم ونصرهم النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين.

وهنا يظهر فضلُ السبق في الاستجابة لله ورسوله، وفضلُ المسارعين إلى اعتناق دعوة الإيمان، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .... ﴾[2]. أي إلى ما يحيي به قلوبكم فتوحدوه[3]. قال السدي: ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر[4].

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، أول من جهر بالقرآن).

(2) (سورة الأنفال، الآية: 24).

(3) (تفسير القرطبي، ج7، ص348).

(4) (تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج4، ص35).

فعلى كل منا أن يعمل لله شكرًا على نعمة الإسلام التي حباه بها، وأن يدعو غيره إليها قولًا وفعلًا وخلقًا وسلوكًا؛ ليكون أهلًا لهذا الشرف العظيم، ولا سيما من كان في موقع قيادة ورياسة وتأثير واقتداء، وإن لم نفعل سلب منا هذا الشرف ونال غيرنا ما تخاذلنا نحن عنه.. قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾[1].

المكر والمؤامرة

ولما كان عدد المؤمنين في نماء، وازداد عمر دعوة النبي ﷺ وصمد أولادها أمام كل العقبات، وجد المشركون أنهم في خطر فجُنّ جنونهم، وتعجبوا من استمرار هذه الدعوة وقوتها رغم كل جهود القمع والإرهاب التي يمارسونها ضد أنصارها، وقد حاولوا من قبل أن يثنوا النبي ﷺ عنها بشتى الوسائل فلم يفلحوا، وقاموا بحملات التفتيش عن الإيمان في قلوب أتباعه فلم ينجحوا، ووقفوا لهم بالمرصاد وتفننوا في تعذيبهم، فارتدت نصالُ كيدهم إلى صدورهم من حيث لم يحتسبوا، إذ ثبت من المؤمنين مَن ثبت، واستشهد منهم مَن استشهد، وهاجر مَن هاجر إلى أرض الحبشة ومِن بعدها إلى يثرب؛ ينشدون العدل والعدالة عند من لا يظلمهم ولو كانوا أغرابًا عن تلك البلاد.

(1) (سورة محمد، الآية: 38).

فلما سُقط في أيدي هؤلاء المشركين؛ قرروا أن يزيدوا من مقدار جرعات الكيد المتواصلة ضد النبي ﷺ ومَن آمن، وألا يترددوا أمام طوفان هذه الرسالة وقد تأكدوا أنه أقوى منهم وأنه سيجرف معه ما هم عليه من شرك ووثنية ووجاهة ورياسة. فاتخذ مكرُهم أسلوبَ الجريمة والخيانة واتَّسم عملهم الإجرامي بالعمل في الظلام، والتحالف مع الشيطان وقوى الشر التي يدعمها لتتحقق مآربهم ومطامعهم، تتحقق ولو على دماء وأشلاء غيرهم؛ لتبقى كراسيهم الفانية! ولو تنازلوا عن بعض القيم التي لا غنى للمرء عنها كإنسان! ولو أن يغضوا الطرف عن أبسط حقوق الإنسان في حرية اختيار العقيدة التي يتعبد الله تعالى بها.

ومن هنا بدأ التخطيط منهم لقتل النبي ﷺ؛ ليغتالوا فيه الإسلام ودعوته، لكن هيهات هيهات أن يتحقق لهم ما أرادوا، فالله حافظٌ نبيَّه وعاصمه من الناس، والله ناصرُ الحق وأهله وإن طال ليل الظالمين، وخاذلُ أهل الباطل وإن كسبوا جولة أو جولات.

إن في هذا درسًا عظيمًا على طول الزمان لكل داعية إلى الله، ولكل صاحب حق يدعو إليه أو يطالب به، الثبات الثبات، فإن هناك عقبات وعقبات، فسيقابل في دعوته من يحاول وأدها من أول لحظة، بل ويكبر الكيد لها متى ظهرت باكورة ثمرها، ويزداد كلما زاد أتباعها، على المستوى الفردي والجماعي، فأعداء الإصلاح يتواجدون في كل زمان، وهم لا يتورعون عن الكيد والمؤامرة والتعذيب مهما تنوعت أشكاله سجنًا وضربًا

أو أذًى ونفيًا وقتلًا، فمرتكبو الجريمة أهدافهم واحدة وأساليبهم متشابهة، وكأنهم توارثوها فيما بينهم وتواصوا عليها!

التخطيط للجريمة

بدأ الطغاة من عتاة المشركين في مكة يخططون لأبشع جريمة، لم يكن الدافع لها ما كان بين قابيل وأخيه هابيل، وإن كان بينهما خيط رفيع يصل تلك الجريمة بما فعله قابيل تجاه أخيه ظلمًا وعدوانًا وحسدًا وبغيًا، وتمردًا على أوامر الله عز وجل الخالق العظيم، ليحمل قابيل وزره، ووزرَ من اقتدى به إلى يوم القيامة، كما قال النبي ﷺ: «ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها؛ ذلك بأنه أول من سن القتل»[1].

لقد تشاوروا في طريقة التخلص من النبي ﷺ، وتوالت الاقتراحات منهم، وكان الشيطان يشهد الجريمة ويخطط معهم ويبدي الرأي ويحلل ويفند، فلم يعجبه الحبس والسجن ولا إثخانه بالجراحات والضرب الشديد، ولم يوافق على النفي من بلده والإخراج والإبعاد والتغريب، وإنما أقنعهم بأن القتل هو الحل الذي يفرق دمه بين القبائل وهو طريق الخلاص المزعوم، فرفع القوم راية التسليم الخسيس ورضوا باقتراح إبليس.

عن قتادة قال: تشاوروا فيه ليلة وهم بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح

---

(1) (مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان...، رقم الحديث: 4112، وأخرجه ابن حبان في صحيحه).

فأوثقوه بالوثاق! وقال بعضهم: بل اقتلوه! وقال بعضهم: بل أخرجوه! فلما أصبحوا رأوا عليًّا رضي الله عنه، فرد الله مكرهم[1].

وقد ذكر الله تعالى قصة التخطيط لهذه الجريمة النكراء فقال لنبيه ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[2]. فهذا إخبار بما اجتمع عليه المشركون من المكر بالنبي ﷺ في دار الندوة فاجتمع رأيهم على قتله فبيَّتوه، ورصدوه على باب منزله طول ليلتهم ليقتلوه إذا خرج، فأمر النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب أن ينام على فراشه، ودعا الله عز وجل أن يعمي عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم، فخرج وقد غشيهم النوم، فوضع على رؤوسهم ترابًا ونهض. فلما أصبحوا خرج عليهم عليّ فأخبرهم أن ليس في الدار أحد، فعلموا أن رسول الله ﷺ قد فات ونجا[3].

«ويمكرون ويمكر الله»

لم يستحِ المشركون من الله خالقهم وهم يتآمرون على عبد من عباده، بل أفضل خلقه ﷺ، «فـإن الحياء من الإيمان»[4]. و«الحياء لا يأتِ إلا

---

(1) (تفسير الطبري، ج13، ص496).

(2) (سورة الأنفال، الآية: 30).

(3) (تفسير القرطبي، ج7، ص355).

(4) (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، رقم الحديث: 24).

بخير»[1]، والنبي ﷺ يقول: «إذا لم تستح فافعل ما شئت»[2]. لذا فقد اتفقوا على قتله؛ حيث لا إيمان لهم يثمر هذا الحياء.

لم يقلل من عداوتهم تجاه رسول الله ﷺ طول مكثه بينهم، فلم يحفظوا له أبسط الحقوق من حفظ الجوار وكرم الأخلاق وحسن العشرة! وها هم ينبذون كل تلك القيم وراء ظهورهم؛ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

والمكر: التدبير في الأمر في خفية.. فيمكرون بالنبي ﷺ «ويمكر الله» بهم بتدبير أمر نبيه بأن أوحى إليه ما دبروه وأمره بالخروج. كما أن المكر من الله هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون[3].

وهنا تتجلى القدرة الإلهية لكل ذي عقل، فمن الذي أخبر النبي ﷺ بالمؤامرة، ومن الذي أمره أن يخرج ويهاجر تاركًا من ورائه رؤوس الكفر ورموزه تتجرع مرارة العجز، قد ذهب كبرياؤها وتحطم على أبواب الغار، ومن الذي أحبط مكرها وأذهب هيبتها وأذلها.. إنه الله سبحانه وتعالى الذي يكسر أعناق الجبابرة إذا ما تطاولت على عباده بغير حق، وهو الله تعالى حافظ عباده المؤمنين أهل الحق العاملين به الداعين إليه،

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الحياء من الإيمان، رقم الحديث: 24)

(2) (سنن أبي داود، كتاب الأدب، إذا لم تستح فافعل ما شئت، رقم الحديث: 4797، وصححه الألباني).

(3) (تفسير القرطبي، ج7، ص355).

القائل في كتابه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. ينصرهم نصرًا عزيزًا مؤزرًا في الدنيا والآخرة كما وعد سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾[2]. (وقد أورد أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى سؤالًا؛ فقال: قد علم أن بعض الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرًا كإبراهيم وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين، أحدهما: أن يكون الخبر خرج عامًّا والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة. الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم)[3].

(وعن السدي: قد كانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون، وذلك أن تلك الأمة التي تفعل ذلك بالأنبياء والمؤمنين لا تذهب حتى يبعث الله قومًا فينتصر بهم لأولئك الذين قتلوا منهم. والوجه الآخر: أن يكون هذا الكلام على وجه الخبر عن الجميع من الرسل والمؤمنين، والمراد واحد، فيكون تأويل الكلام حينئذ: إنا لننصر رسولنا محمدًا ﷺ والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد)[4].

(1) (سورة الروم، الآية: 47).

(2) (سورة غافر، الآية: 51).

(3) (تفسير ابن كثير، ج7، ص150)

(4) (تفسير الطبري، ج21، ص401).

(3)
القرار الصعب

لم يكن لنبي الله ﷺ أن يتخذ قرار الهجرة من تلقاء نفسه دون توجيه من ربه عز وجل الذي بعثه وأرسله بشيرًا ونذيرًا، وهو الذي سينصره ويظهر دينه ولا ريب.. ولأنه نبي مرسل؛ فقد امتثل أمر ربه له بالهجرة، وها هو الحبيب ﷺ يستعد لمغادرة بلده التي نشأ في أحضانها وتربى بين ربوعها، إنها الأرض الطيبة التي قال عنها «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليّ، والله لولا أني أُخرجت منك ما خرجت»[1].

سيخرج رسول الله ﷺ منها بأمر الله تاركًا كل شيء، البيت والأرض، الحصى والتراب، الأهل والصحاب، بل ونسمات الهواء التي يستنشقها بعبقها المميز، إنه سيخلف وراءه ذكرياتِ طفولته وأحاديثَ شبابه وأحداثَ بعثته، وما أشبه مفارقة الوطن بمفارقة الروح الجسد، ولا سيما من أكره على الخروج منه وأخرج رغمًا عنه.. وكم في تلك الأرض من ذكريات وذكريات، وكل ما فيها يمثّل في النفس مكوناتِ ذلك الوطن الذي يكبر حبه في قلبه مع كل لحظة تمر عليه من عمره الشريف، وكما قيل: إن حب الوطن من الإيمان.

(1) (سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب فضل مكة، رقم الحديث: 3108، وصححه الألباني).

ففي مكة نما النبي ﷺ وترعرع وسط أهله وأحبابه الذين كانوا له بمثابة الأب والأم بعد اليتم والحرمان، حيث الجد عبد المطلب وحنانه، والعمّ أبو طالب وكفالته، وفاطمة بنت أسد زوجة العم، والأم بعد فقد الأم، وأبناء العمومة الإخوة والأصدقاء.

وفي مكة تزوج بسيدة النساء الطاهرة خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها -، وعاش معها عمرًا، فكانا خير زوجين، تذوق معها طعم الحب والوفاء، والنصرة والعطاء. وفي مكة رُزق بفلذات الأكباد زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله والطيب، وتذوق لذة الأبوة وعاشها.

وفي مكة، كانت الخلوة مع الله والعبادة الخالصة له والانقطاع للذكر في غار حراء، وفيها نزل عليه الوحي من السماء.

وفي مكة، كانت باكورة دعوته إلى الله، حيث آمن به خير الرجال أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وحمزة وغيرهم. وفيها أيضًا أوذي وكُذّب من أقرب الناس إليه - عمه أبي لهب - ورأى أصحابه وأتباعه وهم يُعذبون كبلال وعمار ويستشهدون كياسر وسمية.

سيخرج رسول الله ﷺ من أحب أرض الله إلى الله، وكم يعز عليه البعد عن بيته المحرم، لكن عزاءه الكبير هو قول الله تعالى له ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]. قال ابن عباس: أي لرادك إلى

(1) (سورة القصص، الآية: 85).

مكة كما أخرجك منها، وعن مجاهد: إلى مولدك بمكة، وقال القتبي: معاد الرجل بلده؛ لأنه ينصرف ثم يعود. وقال مقاتل: خرج النبي ﷺ من الغار ليلًا مهاجرًا إلى المدينة في غير طريق مخافة الطلب، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة، فاشتاق إليها، فقال له جبريل: إن الله يقول: «إن الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد» أي إلى مكة ظاهرًا عليها[1].

فكانت هذه البشارة معينةً للنبي ﷺ على الصبر وتخطي الأحزان، والاستهانة بكل ما يلاقي من معاناة، فما خرج من مكة إلا ليعود إليها فاتحًا منتصرًا، قاهرًا لأعدائه، مطهرًا إياها من رجس الأوثان التي تحيط بها من كل جانب.

ربنا الله

سيتحول النبي ﷺ عن مكة بجسده فقط، والقلب لا زال معلقًا بالبيت العتيق، لكنه - والحمد لله - سيفارق مخالفيه ومكذبيه ومريدي قتله، لذا فقد خرج مستخفيًا عن أنظارهم مهاجرًا إلى الله عز وجل، وفي سبيل الله، لا يجذبه أو يشده للبقاء شيء، هاجر بحثًا عن تربة صالحة لغراسه وبذره، ولم يثاقل إلى الأرض. هاجر وما اقترف إثمًا في حق هؤلاء المشركين حتى يرسلوا على دعوته عواصف العناد المدمرة، وأعاصير التكذيب العاتية، فالإيمان عندهم جريمة، وحب الله وعبادته وحده لا تروق لهم،

(1) (تفسير ابن كثير، ج6، ص260).

والحرية الشخصية حق لهم وحدهم، واختيار الإنسان عقيدته التي يتعبد بها ربه مكفولة للجميع إلا للنبي ﷺ وصحبه من المؤمنين! أيّ عدالة يتشدقون بها، وأيّ عدل يدّعون وهم من يسعون في الأرض بالإفساد بصد النبي ﷺ ومن معه عن اعتناق الإسلام، فضلًا عن الجهر به والدعوة إليه، وأيّ إنصاف يزعمون وهم من يفرضون على الناس عبادة الأصنام والشرك والوثنية، ويسومون الضعفاء منهم سوء العذاب إن لم يسمعوا ويطيعوا؟!

لم يتورعوا عن منع النبي ﷺ تبليغ دعوته التي تقول ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]. وها هم يصلون إلى قمة الإفساد فيتآمرون على وأد الرسالة رغم مرور عدة سنوات عليها بينهم، لم يلنْ لهم قلب، ولم تدمع منهم عين، ولم يخشع لهم طرف، صرفوا جلّ وقتهم في حربها والصد عنها، بل ها هم أولاء يتفقون على قتل صاحبها عليه الصلاة والسلام فيلجئوه للخروج.. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[2]. قال العوفي عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمدًا وأصحابه ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له. كما قال تعالى «يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم»[3].

(1) (سورة البقرة، الآية: 256).

(2) (سورة الحج، الآية: 40).

(3) (تفسير ابن كثير، ج5، ص435).

لقد جاوزا الحدّ من العناد فصاروا ضد دعوة النبي ﷺ وناصبوه العداء، ولم يمدوا أيديهم ليغترفوا من رحمة الله المهداة المرسلة إليهم، بل لقد وصل من جحودهم ونكرانهم أن قال أبو جهل: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، فقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]. لكن المشركين لم يقدروا هذه النعمة حق التقدير، ولم يعبؤوا بها ويحافظوا عليها، بل ازدادوا طغيانًا وكفرًا، فلما استنفدوا مرات الرسوب في امتحان الإيمان بمكة وأخفقوا في نتائج الاختبار، الذي خاضوه مع هذه الرسالة الربانية، وحاولوا التخلص من نبي الرحمة؛ كان الأمر الإلهي والإذن الرباني لرسول الله ﷺ بالخروج من مكة إلى يثرب؛ حيث الإيمان والنصرة. فكان نصيبهم الحرمان والخسارة بخروج النبي ﷺ من بين أظهرهم مهاجرًا عنهم. إنهم الآن في خطر وعلى حافة الهاوية إن لم تدركهم رحمة الله تعالى ويمنّ عليهم بالهداية.

قال ابن عباس: لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبي ﷺ منها والمؤمنون؛ يلحقوا بحيث أمروا[3]. وقال: كان فيهم أمانان النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار[4].

(1) (سورة الأنفال، الآية: 32)

(2) (سورة الأنفال، الآية: 33).

(3) (تفسير القرطبي، ج7، ص357).

(4) (تفسير ابن كثير، ج4، ص48).

إلى يثرب حيث الإيمان والنصرة

وها هو نبي الله ﷺ يعدّ عدته للهجرة، وسينتقل بفضل الله من مكة إلى أرض أخرى مشتاقة لرسالته، حاضنة لدعوته، ناصرة لصحابته، أرض سيدخلها النور بمقدمه، وسيكون لها في تاريخ الإسلام شأنٌ وأي شأن، والجزاء من جنس العمل.. فسيخلد الله تعالى ذكرها وذكر أهلها أن احتضنت خير البشر، وآوت أحب خلق الله إلى الله عز وجل، بل سيحنّ الناس إليها بكل ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، وسيَفِدون عليها من كل حدب وصوب، يشدون رحالهم لزيارة مسجده ﷺ والصلاة فيه، ويتنسمون عبير هوائها الطيب، ويعيشون بالذاكرة والوجدان لحظات تنزل الوحي فيها على النبي ﷺ، ويرون بعين قلوبهم صحبه الكرام وهو ينافحون دونه ويجاهدون معه ويستشهدون فداءً له، فالكل يفديه بنفسه وروحه.. سيذكرنا ثراها الطاهر بهؤلاء الأنصارالأبرار الذين آووه ونصروه واتبعوه وآزروه، هو ومن هاجر من المؤمنين إليهم، تراهم وهم يتسابقون فيمن ينال شرف استقبال رسول الله ﷺ واستضافته في بيته.

أفضل صاحب.. وخير رفيق

اختار الله تعالى لنبيه ﷺ في هجرته إلى يثرب خيرَ صاحب وأحسن رفيق، اختار له أبا بكر، وقد علم أنه أفضل من يقوم بمهمة الرفقة والصحبة في طريق الهجرة معه. لينال شرفًا ما بعده شرف، ويسبق

الجميع بذلك كما سبق في الإيمان والنصرة. فأبو بكر ليس كغيره من الرجال، إنه أمّة وحده.. يقول عنه عمر رضي الله عنهما: (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم)[1]، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: «خير أمتي بعدي أبو بكر وعمر»[2]. إنه أول من آمن من الرجال، ولم يأل جهدًا من نفقة أو نصح أو تضحية في سبيل الله، وقد ذكر النبي ﷺ فضل أبي بكر صاحب هجرته.. فقال: «إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خلة الإسلام...»[3]. وبشره وقال «أبو بكر في الجنة»[4]، وذكر فضائله فقال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر»[5]. وقال: «أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ما خلا النبيين والمرسلين»[6]

(1) (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان)

(2) (أورده ابن عساكر في تاريخ دمشق، وحسنه السيوطي).

(3) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة، رقم الحديث: 3691).

(4) (مسند أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند باقي العشرة المبشرين بالجنة، أبو بكر في الجنة...، رقم الحديث: 1678، وصححه السيوطي)

(5) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر، رقم الحديث: 3692، وأخرجه ابن حبان في صحيحه).

(6) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، هذان سيدا كهول أهل الجنة...، رقم الحديث: 3666، ص571، وصححه الألباني).

وتحكي السيدة عائشة - رضي الله عنها - قصة هذا الاختيار المبارك، فتقول: (لم أعقل أبويّ قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجرًا قبل الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة، وهو سيد القارة - قبيلة موصوفة بجودة الرمي - فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. قال ابن الدغنة: إن مثلك لا يَخرج ولا يُخرج، فإنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك، فارتحل ابن الدغنة، فرجع مع أبي بكر، فطاف في أشراف كفار قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج، أتُخرجون رجلًا يكسب المعدوم، ويصل الرحم ويحمل الكَلّ، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق. فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة، وأمَّنوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة: مُر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصَلّ، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا. قال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاة، ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجدًا بفناء داره وبرز، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكاء، لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين،

فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا له: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجدًا بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا؛ فأته، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة أبا بكر، فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. قال أبو بكر: إني أرد لك جوارك، وأرضى جوار الله. ورسول الله ﷺ يومئذ بمكة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين». وهما الحَرتان[1]، فهاجر من هاجر قبل المدينة حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعضُ من كان هاجر إلى أرض الحبشة، وتجهز أبو بكر مهاجرًا، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي». قال أبو بكر: هل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر[2] أربعة أشهر)[3].

(1) (الحَرتان: تثنية حَرة، وهي أرض ذات حجارة سوداء كأنها احترقت بحر النار).

(2) (السمر: نوع من الشجر).

(3) (صحيح البخاري، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، رقم الحديث: 2176، ص804).

(4)
كانت الهجرة نصرًا

أن يُمنَع من تبليغ رسالة ربه وهو رسول، وأن يَطلب النصرة وهو نبي، وأن يَبحث عن المأوى وهو في موطنه؛ لهُوَ أمر يستحق النظر ويستحث التفكير، ويهيج العواطف ويبعث على التأمل الكبير.

لقد وعد الله تعالى نبيه ﷺ النصر المبين، والعز والتمكين، فما باله الآن يبحث عن تلك النصرة سنين عددًا فلا يجدها، ويطلب المأوى زمنًا طويلًا فلا يجيبه أحد؟! وما له اليوم يدَع بلده وبيته متخفيًا ويخرج منه مطارَدًا يتعقبه المشركون، كلٌّ يريد جائزة الإمساك به حيًّا أو ميتًا؟! أليس هو بنبيّ مؤيّد من ربه؟! ألم يخبر الناس أنه على الحق؟! فلماذا لا يأتيه النصر على أعدائه سهلًا دون عناء، سريعًا بلا إبطاء؟!

هكذا يقول أصحاب القلوب المريضة، إن لم يكن علنًا ففي أنفسهم، وهذا ظنهم السقيم حيث تكون نار البلاء لهم فتنة تنقلهم إلى مزيد من الشك وسوء الظن بربهم – والعياذ بالله –، بدلًا من أن تطهرهم وتصقلهم ليتفكروا في أنفسهم ويعيدوا النظر من جديد فيما هم فيه، ويغيروا ما بها من مرض، ويحدث ذلك في كل عصر، فعند المحن تظهر المعادن وتطهر،

ويعرف زيفها وأصلها، كما حصل فيما بعد من المنافقين حين قالوا ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾(1). وذلك حين قال طعمة بن أبيرق ومعتب بن قشير وجماعة نحو من سبعين رجلًا يوم الخندق: كيف يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز(2)؟

أما المؤمن الحق فلا يزيده البلاء إلا قوة، ولا يتمخض إلا عن الصبر والثبات والإيمان واليقين، كما كان من المؤمنين قبل الهجرة من أمثال بلال وصهيب وخباب، وعمار وياسر وسمية، وكما كان من المؤمنين فيما بعد عند زلزلة الابتلاء بالأحزاب، فكان ما حكاه الله تعالى عنهم ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾(3).

وقد ضرب لنا نبي الله ﷺ خير مثال يحتذى به، فما ضعف قط وما يأس، ما وهَن ساعة وما قنط،، والعبرة بالخواتيم والعاقبة بالنصر والخاتمة بالعز هي موعد الله له ولعباده المؤمنين، مصداقًا لقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(4).

(1) (سورة الأحزاب، الآية: 12).

(2) (تفسير القرطبي، ج14، ص136).

(3) (سورة الأحزاب، الآية: 22).

(4) (سورة النور، الآية: 55).

وكان النبي ﷺ يربي أصحابه على عدم استعجال النصر ويحثهم على الانشغال بأخذ أسبابه مع الانتظار حتى تنضج ثمرته ويأتي في حينه المقدر من عند الله بالعمل الجاد الدؤوب، والصبر على عوائق طريق الوصول إلى هذا النصر الغالي، ومن ثَم تتحقق البشارة.. يسوقها إليهم وإلينا مؤكدًا: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(1)، وقال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»(2).

الأنصار.. والنصرة

وقد نال الأنصار من أهل يثرب شرفَ النصرة والصحبة لرسول الله ﷺ، فعَنْ جابر بن عبد الله الأنصاري: (أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتتبع الناس في منازلهم في الموسم، ومجنة، وعكاظ، وفي منازلهم من منى، يقول: «مَن يؤويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي، وله الجنة؟». فلا يجد ﷺ أحدًا ينصره، ولا يؤويه، حتى أن الرجل ليرحل من مِصر أو من اليمن إلى ذي رحمه، فيأتيه قومه، فيقولون له: احذر غلام قريش، لا يفتنك. ويمشي

(1) (صحيح البخاري، كتاب المناقب، يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، رقم الحديث: 3416).

(2) (صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم الحديث: 2889، ص2215).

بين رحالهم يدعوهم إلى الله فيشيرون إليه بالأصابع. حتى بعثنا الله له من يثرب، فيأتيه الرجل فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبقَ دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، فائتمرنا واجتمعنا، فقلنا: حتى متى رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة، ويخاف؟ فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا شِعب العقبة، فقال له عمه العباس: يا أهل يثرب. فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين، فلما نظر في وجوهنا، قال: هؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث. فقلنا: يا رسول الله، على ما نبايعك؟ قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون عنه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، فلكم الجنة»)[1].

إلى المدينة

وقد (رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، فحذروا خروج الرسول ﷺ إليهم، وخافوا أن يكون قد أجمع لحربهم. فاجتمعوا له في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون فاجتمع رأيهم – أخيرًا – على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابًّا جلدًا، ثم يُعطَى كلٌّ

(1) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 7012).

منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه؛ كي لا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعًا، وضربوا لذلك ميعاد يوم معلوم. فأتى جبريل - عليه السلام - رسول الله ﷺ يأمره بالهجرة، وينهاهُ أن ينام في مضجعه تلك الليلة)[1].

فأمر النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن ينام في فراشه، قائلًا له: «نم في فراشي، وتسجّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»[2].

وقد (غادر النبي ﷺ بيته في ليلة 27 من صفر سنة 14 من النبوة الموافق 12/ 13 سبتمبر 622م. وأتى إلى دار رفيقه- وأمنّ الناس عليه في صحبته وماله- أبي بكر رضي الله عنه. ثم غادرا منزل الأخير من باب خلفي، ليخرجا من مكة على عجل، وقبل أن يطلع الفجر... وكَمَنَا في الغار - غار ثور - ثلاث ليال، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد... وفي يوم الاثنين 8 ربيع الأول سنة 14 من النبوة- وهي السنة الأولى من الهجرة- الموافق 23 سبتمبر سنة 622م، نزل رسول الله ﷺ بقباء.. وأقام بقباء أربعة أيام، وأسس مسجد قباء، وصلى فيه، وهو أول مسجد أسس على التقوى، فلما

(1) (انظر فقه السيرة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الحادية عشرة، دار الفكر دمشق، 1991م).

(2) (السيرة النبوية لابن هشام، هجرة النبي ﷺ، ج1، ص483).

كان اليوم الخامس – يوم الجمعة– ركب بأمر الله له وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار– أخواله – فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مائة رجل. وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة. ومن ذلك اليوم سميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ)[1].

(فدخلها لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول.. وخرجت ولائد من بني النجار فرحات بمقدم النبي ﷺ وجواره لهن، وهن ينشدن: نحن جوار من بني النجار: يا حبذا محمد من جار)[2].

كانت الهجرة نصرًا.. وليست هروبًا

روى الترمذي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: كان النبي ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فنزلت ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾[3]. قال قتادة: «وقل رب أدخلني مدخل صدق: يعني المدينة»، «وأخرجني مخرج صدق: يعني مكة»[4]. وقال الضحاك: هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمنًا[5].

(1) (الرحيق المختوم للشيخ صفي الدين المباركفوري).
(2) (فقه السيرة، للبوطي).
(3) (سورة الأنبياء، الآية: 80).
(4) (تفسير ابن كثير، ج5، ص111)
(5) (تفسير القرطبي، ج10، ص281).

لقد كان خروج النبي ﷺ وهجرته إلى المدينة نصرًا وفتحًا، وإن بدا فرارًا وهروبًا، ولِمَ لا يعدّ نصرًا؛ وقد صار للمسلمين دولة تضمهم، ومأوى يؤويهم، وعصبة تحميهم، ودرع يقيهم، وقوة تذود عنهم؟ ولمَ لا تكون فتحًا؛ وقد فتح الله بها قلوب الناس فدخلوا في دين الله فرادى وجماعات؟ ألم تكن الهجرة وسيلة لنشر الإسلام وقيام دولته كما كان صلح الحديبية فتحًا مبينًا، وإن ظن بعض المؤمنين آنذاك غير ذلك. فما الابتلاء والتمحيص والإيذاء والتعذيب إلا بابُ النصر ومفتاح الفرج وثمن الظفر وطريق الفوز. وهذا ما تم لنبي الله ﷺ وصحبه الكرام حين صبروا على ما أوذوا في سبيل الله، وهذا ما كان لأهل النصرة والإيواء من الأنصار في المدينة حين آووا ونصروا رسول الله ﷺ دون غيرهم، فكانوا مع إخوانهم المهاجرين يمثلون الصفوة من البشر بعد الأنبياء.

(5)
يبكي فرحـًا!

أي رفعة تلك التي رفعه الله تعالى بها، وأي منزلة أنزله إياها وشرفه بارتقائها، لقد شارك في صنع هذه الأمة، وجاد بماله ونفسه في سبيلها، ما وهن وما ضعف، وما حزن لأجل نفسه أو خوفًا عليها أو ضنًّا بها على الموت في سبيل الله عز وجل، بل كان حزنه من أجل رسول الله ﷺ، وحبه الكبير له، فكانت له البشارة، وكان الفوز من نصيبه.

إنه رفيق رحلة الهجرة إلى المدينة – سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه – خير صاحب لأفضل نبي، وأفضل صديق لخير الرسل، له علينا وعلى الأمة جميعها فضائل أكثر من أن تحصى؛ فمنذ لحظة الميلاد الأولى للدعوة كان المنافح عنها بماله وجهده وخدمته، وقد كفلها وهي يتيمة، وأنفق عليها من حُرّ ماله وعظيم جهده وجُل وقته؛ لتنمو وتشب على يد نبي الله محمد ﷺ الداعي إليها، كما كان على استعداد أن يموت في سبيل حياتها وبقائها، وأن يفتقر لتغتني هي برجالها وأتباعها، وأن يضحي بنفسه فداءَ رسول الله ﷺ.

يبكي؛ فرحًا بالصحبة

كان أبو بكر يطمع أن يكون صاحب رسول الله ﷺ في هجرته، فمنّ الله عليه بتلك الصحبة المباركة.

قال ابن إسحاق: (وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق - رضي الله عنهما - وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: "لا تعجل؛ لعل الله يجعل لك صاحبًا"؛ فيطمع أبو بكر أن يكونه)[1].

وحين قال له النبي ﷺ (إن الله أذن لي في الخروج والهجرة) بكى فرحًا.. تقول عائشة رضي الله عنها: «فوالله ما شعرت قط، قبل ذلك اليوم، أن أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبي يبكي يومئذ»[2].

في الطريق

أما عن حال أبي بكر مع النبي ﷺ في طريق هجرتهما، فإنه لا يقل بذلًا عما سبق، إنه يبذل نفسه ليفدي النبي ﷺ بها دونما تردد، ويخشى عليه ما لا يخشى على نفسه، بل إنه يكاد يموت؛ فرقًا عليه أن يدركه المشركون الذين

---

(1) (وقفات تربوية مع السيرة النبوية، جمع وترتيب أحمد فريد).

(2) (السيرة النبوية لابن هشام، حديث هجرته ﷺ إلى المدينة، ج1، ص485).

يتسابقون على إحضاره حيًّا أو ميتًا، طغيانًا منهم وكفرًا، ونكرانًا وجحودًا، وتعصبًا وبغضًا، وكبرًا واستعلاء.

وها هي حكاية صحبته تجسدُ لنا حاله، وتروي لنا موقفَ هجرته حتى كأننا نراه عين اليقين، وتأخذنا إلى هذا المشهد الحيّ الذي انفرد به أبو بكر دون الناس جميعًا. فقد ذكر الحاكم في «مستدركه» عن عمر – رضي الله عنه – قال: (لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار، ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال:«يا أبا بكر، مالك تمشي ساعة بين يدي، وساعة خلفي؟». فقال: يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك. فقال: «يا أبا بكر، لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟»، قال: نعم، والذي بعثك بالحق، ما كانت لتكون من مُلمة إلا أن تكون بي دونك، فلما انتهيا إلى الغار، قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله، حتى أستبرئ لك الغار، فدخل واستبرأه، حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرىء الحجرة، فقال: مكانك يا رسول الله، حتى أستبرىء الحجرة، فدخل واستبرأها، ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل).

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أن الحسن بن أبي الحسن البصري، قال: (انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلًا، فدخل أبو بكر – رضي الله عنه – قبل رسول الله ﷺ فتلمس الغار لينظر.. أفيه سبع أو حية يقي رسول الله ﷺ بنفسه)[1].

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، قصة الرسول ﷺ مع أبي بكر في الغار، ج1، ص487).

ما صحب الأنبياء مثل أبي بكر

وقد ذكر الله تعالى هذه الصحبة، وأثبتها لأبي بكر في القرآن الكريم؛ فقال عز وجل: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. وقيل: فقد نصر الله نبيه بصاحبه في الغار بتأنيسه له وحمله على عنقه، وبوفائه ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله. قال الليث بن سعد: ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبي بكر الصديق. وقال سفيان بن عيينة: خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله: «إلا تنصروه»[2]. وفي الصحيح عن أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق حدثه قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رءوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما»[3].

---

(1) (سورة التوبة، الآية: 40).

(2) (تفسير القرطبي، ج8، ص74).

(3) (صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم الحديث: 2381، ص 1854)

وروي أيضًا أنهم لما عمي على المشركين الأثر جاءوا بالقافة، فجعلوا يقفون الأثر حتى انتهوا إلى باب الغار، فعندما رأى أبو بكر – رضي الله عنه – القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال: إن قتلت فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة. فعندها قال له رسول الله ﷺ : «لا تحزن؛ إن الله معنا»، ألا ترى كيف قال لا تحزن ولم يقل لا تخف؟ لأن حزنه على رسول الله ﷺ شغله عن خوفه على نفسه، ولأنه أيضًا رأى ما نزل برسول الله ﷺ من النصب، وكونه في ضيقة الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة، وكان أرق الناس على رسول الله ﷺ وأشفقهم عليه؛ فحزن لذلك. وقد روي أنه قال: نظرت إلى قدمي رسول الله ﷺ في الغار وقد تفطرتا دمًا، فاستبكيت، وعلمت أنه – عليه السلام – لم يكن تعود الحفاء والجفوة. وأما الخوف فقد كان عنده من اليقين بوعد الله بالنصر لنبيه ما يسكن خوفه[1].

أسرة مؤمنة مجاهدة

لقد اشتركت أسرة أبي بكر الصديق في أحداث هذه الهجرة المباركة، وشاركت في نجاحها، ولا غرابة في ذلك فإنها تنتمي إلى أول رجل آمن برسول الله ﷺ وتسير على طريق سيره.

قال ابن إسحاق: فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج، أتى أبا بكر بن

(1) (انظر الروض الأنف للسهيلي، خبر الندوة وهجرة الرسول ﷺ، الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار، ص317).

أبي قحافة فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما[1].

جزاء الإحسان

أحب النبي ﷺ أبا بكر حبًّا كبيرًا، وقال: «لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذته خليلًا، ولكن أخوة الإسلام أفضل»[2].

وذكر فضائله وعدّدها وأثنى عليه الثناء الحسن، فقال: «رحم الله أبا بكر: زوجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالًا من ماله»[3]، وقال: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه، ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو

---

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، قصة الرسول ﷺ مع أبي بكر في الغار، ج1، ص486).

(2) (صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر، رقم الحديث: 3457).

(3) (رواه الترمذي، رقم الحديث: 3714، وضعفه الألباني).

كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن صاحبكم خليل الله»[1]، وبشره بالجنة فقال: «أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي»[2]. وقال: «أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين»[3]. وقال: «إن أهل عليين ليُشرف أحدهم على الجنة فيضيء وجهه لأهل الجنة كما يضيء القمر ليلة البدر لأهل الدنيا، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنعَما» أي وهما أهل للتنعم به[4].

أين مكاننا من النصرة؟

ها هو الصاحب والرفيق لنبينا ﷺ في رحلة الهجرة إلى المدينة، سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، حمل همّ الدعوة على عاتقه، وجاهد في سبيل الله بماله ووقته ونفسه، كان صاحبًا وفيًّا لصاحبه مخلصًا أمينًا، فأثبت له الله هذه الصحبة في القرآن الكريم، وجزاه بإحسانه إحسانًا. فهل نتعلم منه آداب الصحبة، ووفاء الصداقة، وهل نأخذ منه دروسًا في البذل والعطاء والحب والإيثار، وهل نحسن اختيار أصحابنا وأصدقائنا

(1) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، رقم الحديث: 3661، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه).

(2) (سنن أبي داوود، رقم الحديث: 4652، وضعفه الألباني).

(3) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 6904).

(4) (أخرجه الألباني في ضعيف الجامع، رقم الحديث: 1840).

ليكونوا لنا عونًا على طاعة الله، وقد قال النبي ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»(1). وقال: «الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحًا خبيثة»(2). وقال: «مثل الجليس الصالح مثل العطار إن لم يعطك من عطره أصابك من ريحه»(3).

وفي معناه قول القائل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي
فإن كان ذا شر فجنبه سرعة ... وإن كان ذا خير فقارنه تهتدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

وهل مع كل هذا نفكر ونتفكر في رحلة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – وهجرته مع النبي ﷺ فنتزود منها؟

---

(1) (سنن أبي داود، كتاب الأدب، الرجل على دين خليله، رقم الحديث: 4833، وحسنه الألباني)

(2) (صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، رقم الحديث: 1995).

(3) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 579، وصححه الألباني في صحيح الجامع).

(6)
إنهم الأنصار

إذا رأيتهم رأيتَ الخير مجسّدًا فيهم، وامتلأتْ نفسك بالإجلال والتقدير والحب لهم، إنهم من طراز فريد ونوع راق قلّ أن يوجد مثله في الدنيا، طراز حكى الله تعالى لنا عنه في كتابه الكريم ليكون لنا مثلًا وأسوة، فإذا تحدثت عن الإيمان وجدتهم إليه من السابقين، وإذا ذكرت التضحية والفداء كان لهم منها النصيب الأوفى، وإن أشير إلى الإيثار فثَمَّ هناك حيث يقيمون، فإنه غايتهم ومطلبهم، وخلقهم ومسلكهم. صغرت الدنيا في أعينهم فبذلوها رخيصة وقد ملكوها، فلم يغرهم زخرفُها أو يفتنهم بريقُها وهم يأخذون منها زادهم إلى الله عز وجل، ولم ينشغلوا بها وينصرفوا عن الغاية العظيمة التي عاشوا من أجل تحقيقها وماتوا في سبيلها. لقد ضربوا لنا أعظم مثال في صدق المحبة وتمام الاتباع لله ورسوله، فكانوا خير صحْب لخير نبي، وكفى بها منحة لهم.

مدحهم الله تعالى في قرآنه الخالد، فتتردد الآيات على صفحات ألسنتنا، وتتلى على مسامع قلوبنا ليل نهار بمدحهم وذكر فضلهم والترضي عنهم، فلقد شرَوْا أنفسهم وباعوها لله عز وجل، وقبل الله بيعهم وكان

ربحهم فيها وافرًا عظيمًا.. «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».. وكانت لهم البشارة الخالدة.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾[1].

إنهم الأنصار

إنهم أنصار رسول الله ﷺ من أهل المدينة.. الصدر الحاني الذي فتح ذراعيه لنبي الله ﷺ وللمهاجرين أصحابه، وهم الحضن الدافئ الذي استدفأ به وسط صقيع التكذيب حين جافاه قومه وأخرجوه، وهم القلب البار الكبير الذي كان عوضًا له عن عقوق المشركين من أهل مكة والطائف وغيرهم ممن كذبوه وآذوه. وقد سماهم الله تعالى بهذا الاسم (الأنصار) الذي يوحي بالنصرة ويدل على بذل القوة في نصرة الحق وأهله، وخلد ذكرهم في كتابه الكريم إلى أن يرث الأرض ومن عليها، ورضي عنهم وأرضاهم، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[2]. قيل لأنس بن مالك رضي الله عنه: أرأيتَ قول الناس لكم: الأنصار، اسم سماكم الله به أم كنتم تدعَون به في الجاهلية؟ قال: بل اسم سمانا الله به في القرآن[3].

(1) (سورة التوبة، الآية: 111).
(2) (سورة التوبة، الآية: 100).
(3) (تفسير القرطبي، ج8، ص158).

لقد ربح والله بيعهم

وقد ضرب لنا الأنصار أعظم مثال في حب الله ورسوله، فحين بايعوه بيعة العقبة الثانية على أن ينصروه إذا قدم إليهم، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم «قال لهم أسعد بن زرارة: رويدًا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن يعضكم السيف، فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم وعلى قتل خياركم ومفارقة العرب كافة، فخذوه وأجركم على الله. وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة، فذروه، فهو عذر عند الله - عز وجل - فقالوا: يا أسعد، أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها. قال (جابر بن عبد الله الأنصاري): فقمنا إليه رجلًا رجلًا، فأخذ علينا ليعطينا بذلك الجنة»[1]. وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: يا رسول الله، اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم. قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. فنزل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾[2] قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم[3].

---

(1) (المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الهجرة الأولى إلى الحبشة، ذكر بيعة العقبة مفصلًا، ج3، ص531، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، واللفظ للحاكم).

(2) (سورة التوبة، الآية: 111).

(3) (تفسير ابن كثير، ج4، ص218).

أهل الإيثار والكرم

ومن أعظم صفات الأنصار وما تميزوا به من جميل الأخلاق؛ خلق الإيثار، وحب إخوانهم من المهاجرين، وصفاء النفس، ونقاء السريرة، وقد وصفهم الله تعالى في القرآن الكريم بذلك، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] وعن أنس - رضي الله عنه - قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا قومًا أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل؛ من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال النبي ﷺ: «لا؛ ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم»[2]. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: لا. فقال: تكفونا المئونة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا»[3]. وأخرج البخاري عن أنس - رضي الله عنه - قال: دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا. إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها[4].

---

(1) (سورة الحشر، الآية: 9).

(2) (صحيح الترمذي، رقم الحديث: 2487، وصححه الألباني).

(3) (صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في المعاملة، رقم الحديث: 2570).

(4) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا، رقم الحديث: 3583).

ومن صفاتهم أنهم لا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة.

قال تعالى مادحًا لهم: «ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» (يعني: حاجة، أي: يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة جهد المقل». وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى «ويطعمون الطعام على حبه» وقوله «وآتى المال على حبه» فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه)[1].

مؤاخاة فريدة.. وأخوّة نادرة

أنْ تسكن في بيتك فيأتيك ضيف فتكرمه ثلاثة أيام ثم يغادر، أو يزورك غريب فتؤويه ليالي ثم يرحل، أو يمر عليك مسافر فتضيفه وقتًا ثم يظعن؛ لهو أمر مقبول عادة وعرفًا، وإنه لمن مكارم الأخلاق التي تميز بها العرب. أما أن يأتيك ويهاجر إليك من لا تعرفه، ويعيش معك لوقت غير محدد، وتؤاخيه فيشاطرك مالك ومسكنك بل ووقتك ومطعمك حيًّا وميتًا، فتقابل هذا كله بسعادة وفرح ورضا وطيب نفس فهذا أمر يدعو للعجب وينبيء عن

(1) (تفسير ابن كثير، ج8، ص70).

نفاسة معدنك وأصالته، وحبك لمن هو أغلى من هذا المال وأعلى من ذاك الذهب.. وهذا ما كان من الأنصار حين استقبلوا إخوانهم من المهاجرين وآووهم حبًّا لله ورسوله، فصاروا بنعمة الله إخوانًا.

وقد (شرع رسول الله ﷺ نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقد شمل ذلك خمسة وأربعين من الأنصار، وترتب على هذا النظام حقوق خاصة بين المتآخيين كالمواساة في مواجهة أعباء الحياة والتوارث بينهما دون ذوي الأرحام. وتصور بعض المرويات الصحيحة عمق التزام الأنصار بنظام المؤاخاة، ومدى حرصهم على تنفيذه، كما تصور مدى أنفة وكرم أخلاق المهاجرين، وامتناعهم عن استغلال إخوانهم. واستمر العمل بنظام المؤاخاة إلى ما بعد غزوة بدر الكبرى؛ حيث ألف المهاجرون جوَّ المدينة، وعرفوا مسالك الرزق فيها، ووثقوا علاقتهم بإخوانهم المسلمين من الأنصار وغيرهم، وأصابوا من غنائم معركة بدر الكبرى ما كفاهم. ولذلك فقد ألغي التوارث في نظام المؤاخاة، وعاد إلى وضعه القائم على أساس صلة الرحم)[1].

فكان ممن تآخوا على سبيل المثال وثبتت لنا المصادر أسماءهم: أبو بكر الصديق مع خارجة بن زهير، عمر بن الخطاب مع عتبة بن مالك، أبو عبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ، عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع، الزبير بن العوام مع مسلمة بن سلامة، عثمان بن عفان مع أوس بن ثابت، طلحة بن

(1) (انظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ. ج1 ص 267).

عبيد الله مع كعب بن مالك، سعيد بن زيد مع أُبَيّ بن كعب، مصعب بن عمير مع أبي أيوب خالد بن زيد، أبو حذيفة بن عتبة مع عباد بن بشر، عمار بن ياسر مع حذيفة بن اليمان، أبو ذر الغفاري مع المنذر بن عمرو، حاطب بن أبي بلتعة مع عويم بن ساعدة، سلمان الفارسي مع أبي الدرداء، بلال مع أبي رويحة[1].

إنها أخوّة نادرة يتقاسم الأنصاري فيها ما يملك مع أخيه المهاجر بحب وإيثار عجيب، وهو الذي لا تربطه به قرابة أو معرفة حميمة سابقة، ويقابل هذا الإيثار العجيب من الأنصار ما هو أعجب منه حيث عفة نفس وغنى وقناعة من المهاجرين، فها هو سعد بن الربيع يقول لعبد الرحمن بن عوف: «إني أكثر الأنصار مالًا، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟»[2]. فيا لهم من رجال! بمثل هؤلاء وهؤلاء قامت دولة الإسلام، وبمثلهم تخطى المسلمون المهاجرون حينها أزمتهم الاقتصادية دون أن يمدوا أيديهم لأعدائهم من مشركي مكة عطفًا واستجداء. وبمثل هذه الأخلاق يحصل التعالي والانتصار على عامل من أكبر عوامل الاستعمار حين ينخر في جسد الشعوب، ألا وهو الجوع والحاجة والفقر، وبمثل المهاجرين والأنصار انتشر الإسلام فدخل الناس في دين الله أفواجًا.

(1) (دراسة في السيرة الدكتور عماد الدين خليل.. ص 127).

(2) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، رقم الحديث: 3569).

ألا ما أشد حاجتنا إلى إحياء روح هذه الأخوة الحقيقية، أخوّة الدين التي ذكرها الله تعالى وأكدها في كتابه فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، وما أشد حاجتنا إلى التخلق بأخلاق إخواننا من المهاجرين والأنصار، لا سيما في هذه الأيام التي نسمع فيها عن انتهاك الحقوق والعبث بالأرواح، فأينما يمَّمنا وجوهنا رأينا الدماء تسيل بلا رحمة، فيضرب الأخ أخاه ويؤذيه بل ويقتله دونما ذنب إلا أن يطالب بحقه لا غير.

كما أن هناك أيضًا من يأكل مال غيره ظلمًا ويغتني على حسابه، ومنهم من يقطع صلته عن أخيه الفقير، أو يعطيه ويمنّ عليه بالعطاء. وهناك من يشبع ملء بطنه وإخوانه من حوله يتضورون جوعًا فلا يهتز له طرف! وفي المقابل يوجد من يتدنى بنفسه ويذهب بعزتها وعفتها ويريق ماء وجهه فيطمع في العطاء دائمًا ويتطلع إليه ويتشوق، بل ويتسول ويمد يده لإخوانه وأصحابه رغبة في الزيادة، ولا يعمل ويكد ليعف نفسه عن ذل السؤال، ويسأل الناس عند الحاجة وغير الحاجة، دائمًا يده هي اليد السفلى فلا يشبع ولا يشكر ولا يستغني! أين هذا كله من إيثار الأنصار وعفة المهاجرين؟!

هؤلاء هم الأنصار

هؤلاء هم الأنصار، وهذه أخلاقهم، قال لهم الرسول ﷺ: «أنا محمد عبد الله ورسوله، هاجرتُ إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم،

---

(1) (سورة الحجرات، الآية: 10).

والممات مماتكم»(1). وكان بقاء النبي ﷺ بينهم ومكثه معهم بالمدينة بعد فتح مكة؛ خيرَ مكافأة لهم وأعظم عطاء، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: (لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء؛ وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة؛ حتى قال قائلهم: لقي رسول الله ﷺ قومه... فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسوله أمنّ وأفضل. قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟» قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المن والفضل؟ قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم أتيتنا مكذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فأغنيناك. أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار

(1) (صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، رقم الحديث: 1780).

وأبناء أبناء الأنصار» قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقنا)[1].

لقد اختارهم ولم ينسَ فضلهم إذ يقول: "يا معشر الأنصار، ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون برسول الله ﷺ تحوزونه إلى بيوتكم؟". قالوا: بلى. فقال النبي ﷺ: "لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار شعبًا لأخذت شعب الأنصار"[2].

ومن مفاخرهم ومناقبهم ما أخرجه الحاكم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «افتخر الحيَّان من الأنصار الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منّا غسّيل الملائكة حنظلة الراهب، ومنا من اهتز له عرش الرحمن سعد بن معاذ، ومنّا من حمته الدبر عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين خزيمة بن ثابت، وقال الخزرج: منّا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يجمعه غيرهم: زيد بن ثابت، وأبو زيد، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل»[3]. فرضي الله عن أنصار رسول الله ﷺ وأرضاهم وجمعنا بهم في جنات النعيم.

---

(1) (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، ما قالة بلغتني عنكم، رقم الحديث: 11322).

(2) (صحيح البخاري، كتاب المغازي، رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر، رقم الحديث: 4082).

(3) (المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر، كتاب المناقب، باب ما اشترك فيه جماعة من الصحابة، رواه البزار من طريق عبد الوهاب بن عطاء، وأصله في البخاري).

(7)
تحديات.. وأعطيات

نجَّى الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أثناء هجرته من المطاردين له، فلم ينلْ منهم أحدٌ الجائزةَ التي رصدها مشركو مكة لمن يأتي به وبصاحبه، فوصلا آمنَين إلى المدينة، وكانت نهاية رحلة الهجرة هي نقطة البداية لعمل طويل شاق لا يقل عما سبقه في مكة، وذلك من أجل إقامة دولة الإسلام وبناء لبناتها من مسلمي مكة والمدينة، أي من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، وقد بدأ النبي ﷺ هذا المشوار منذ أول لحظة وصل فيها إلى المدينة.

ولم تكن هجرة النبي ﷺ أيضًا هي نهاية عهده بمكة، بل كانت هي بداية الانطلاق من أجل تحرير مكة وغيرها من البلدان من الشرك بالله وعبادة الأوثان.

جاء نبي الله.. جاء نبي الله

عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: «أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان

يقولون: هذا رسول الله قد جاء»[1]. وقُدّر عدد الذين استقبلوه من المسلمين الأنصار خمسمائة حيث أحاطوا بركب النبي ﷺ وصاحبه. ومضى الموكب داخل المدينة والجموع تهتف: «جاء نبي الله.. جاء نبي الله»[2].

وروى أنس رضي الله عنه: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء..»[3]. وروى ابن أبي خيثمة عن أنس: شهدت يوم دخول النبي ﷺ المدينة فلم أر يومًا أحسن منه ولا أضوء»[4].

وكانت المدينة تسمى (يثرب) فسماها النبي ﷺ المدينة، وقد قال "أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبثَ الحديد»[5]. وقال: «من سمى المدينة:

---

(1) (صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة سبح اسم ربك الأعلى، رقم الحديث: 4657).

(2) (انظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، ج1. ص 262).

(3) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، مكتوب في التوراة صفة محمد وصفة عيسى، رقم الحديث: 3618، وصححه الترمذي).

(4) (رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الهجرة، رقم الحديث: 4213، وقال هذا حديث صحِيح على شرط مسلم ولم يُخَرِّجاه).

(5) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس، رقم الحديث: 1772).

يثرب، فليستغفر الله، هي طابة، هي طابة»[1]. وعن جابر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى سمى المدينة طابة»[2].

وقد أحب النبي ﷺ أهل المدينة الأنصار الذين ضربوا أعظم مثال في الحب والبذل والعطاء والإيثار، ودعانا إلى حبهم، وقال: «والذي نفسي بيده، لا يحب الأنصار رجل حتى يلقى الله؛ إلا لقي الله وهو يحبه، ولا يبغض الأنصار رجل حتى يلقى الله، إلا لقي الله وهو يبغضه»[3]. وقال: «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»[4]. وقال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[5].

مع المهاجرين

لم يكن المهاجرون ليتركوا مكة لولا الإيذاء والتعذيب وعدم التمكين لهم من إقامة شعائر الدين، وقد روي عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –

(1) (مسند أحمد، أول مسند الكوفيين، من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله عز وجل، رقم الحديث: 18048، وصححه السيوطي).
(2) (صحيح مسلم، كتاب الحج، إنها طيبة، رقم الحديث: 1385).
(3) (صحيح الجامع، رقم الحديث: 1979، وحسنه الألباني).
(4) (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، لا يحبهم إلا مؤمن، رقم الحديث: 111).
(5) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار، رقم الحديث: 3572، ص1379).

قال: (كان أول من أظهر إسلامه سبعة، رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار وأمه سمية، وصهيب وبلال والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالًا؛ فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول أحد أحد»[1].

لذا حين أذن النبي ﷺ بالهجرة سارع المسلمون مهاجرين إلى المدينة كما هاجروا من قبل إلى الحبشة، وقد ضحوا في سبيل الثبات على العقيدة بكل غال ونفيس، فلم يكن ترْك ديارهم وأموالهم بالأمر الهين، لكنهم انتصروا على شهوات النفس وزخارف الحياة وآثروا ما يبقى على ما يفنى، ومنهم من اشترى نفسه بماله كله ليسلم من أذى المشركين فيدعوه يهاجر إلى رسول الله ﷺ ونزل فيه قرآن يتلى إلى يوم القيامة يحث على التمسك بالدين والثبات على الحق.. قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾[2]. قيل إنها نزلت في صهيب فإنه أقبل مهاجرًا إلى رسول الله ﷺ نفر من قريش، فنزل عن راحلته، وانتثل ما في كنانته، وأخذ قوسه، وقال:

---

(1) (سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، أبواب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، كان أول من أظهر إسلامه سبعة، رقم الحديث: 150، حسنه الألباني).

(2) (سورة البقرة، الآية: 207).

لقد علمتم أني من أرماكم، وايم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم. فقالوا: لا نتركك تذهب عنا غنيًّا وقد جئتنا صعلوكًا، ولكن دلنا على مالك بمكة ونخلي عنك، وعاهدوه على ذلك؛ ففعل، فلما قدم على رسول الله ﷺ نزلت الآية، فقال له رسول الله ﷺ: (ربح البيع أبا يحيى)، وتلا عليه الآية[1].

تحديات في أرض الهجرة

كما واجه المسلمون المهاجرون الكثيرَ من المصاعب الصحية الناجمة عن اختلاف المناخ، ذلك أنهم لم يكونوا قد اعتادوا على البرودة القاسية، والرطوبة العالية، وقد تفشت بينهم الحمى، وينقل البخاري مرويات عن بعض كبار الصحابة من المهاجرين الذين أصابهم المرض، وكان أبو بكر الصديق ممن أصيب بالحمى، ويذكر عنه أنه إذا أخذته الحمى كان يقول: كل امرىء مصبّح في أهله: والموت أدنى من شراك نعله. لذا؛ فقد كان النبي ﷺ يدعو ربه لهم «اللهم أمضِ لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم»[2]، «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حُمَّاها فاجعلها بالجحفة»[3].

(1) (انظر تفسير القرطبي، ج3، ص21).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم الحديث: 1234).

(3) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، قدم النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله، رقم الحديث: 3711).

هذا بالنسبة لحال المهاجرين، أما الأنصار فلم لم تكن كفالتهم لإخوانهم المهاجرين بالأمر السهل في دنيا الواقع وعلى أرض الحقيقة كما يتخيل أو يظن البعض، بل كانت في هذه المرحلة الحرجة كفالة كاملة ماديًّا باقتسام ما يملكون معهم وتوارثهم دون أرحامهم، ونفسيًّا بالأخوّة فيما بينهم ومتطلباتها، وأمنيًّا بالدفاع عنهم وموالاتهم وإيوائهم ونصرهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[1] ومن أجل ذلك لم يكن الله تعالى ليضيع أجرهم، فكافأ كلا الفريقين، المهاجرين والأنصار، فجعلهم خير الأصحاب لنبيه وأعزهم بصحبة خير رسله، وذكرهم في كتابه، وقرن بين من هاجر ومن نصر، وحباهم بالرضا والقرب والحب والقبول. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2].

كما شهد لهم بالإيمان، ووعدهم بالغفران.. فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[3]. أي حققوا إيمانهم بالهجرة والنصرة. وحقق الله إيمانهم بالبشارة.

---

(1) (سورة الأنفال، الآية: 72).

(2) (سورة التوبة، الآية: 100).

(3) (سورة الأنفال، الآية: 74).

وقد رضي عنهم النبي ﷺ وبيَّن فضلهم، وقال: «دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبًا ما بلغتم أعمالهم»[1].

الهجرة.. وتحقيق السلام

وكانت هجرة النبي ﷺ سبيلًا لتحقيق السلام في مجتمع المدينة، وكان هذا السلام على صعيدين، الصعيد الأول بين المهاجرين والأنصار حيث تآخوا في الله أخوين أخوين، وعلى الصعيد الآخر كانت المؤاخاة بين الأنصار أنفسهم من قبيلتي الأوس والخزرج، وقد كانت بينهما عداوة كبيرة ضارية، وهذا ما ذكره الأنصار للنبي ﷺ في العقبة حين قالوا إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى الله أن يجمعهم بك، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك[2]. وقد أزالت أخوة الإسلام كل ما كان بينهما من شر وبغضاء، فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا، ونزل القرآن يحث على كل ذلك ويذكر بتلك النعمة العظيمة، نعمة الأخوة والسلام، وهي من أجل النعم بعد نعمة الهداية.. قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[3]، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة

---

(1) (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبًا ما بلغتم أعمالهم، رقم الحديث: 13400، وصححه الألباني).

(2) (السيرة النبوية لابن هشام ج1).

(3) (سورة آل عمران، الآية: 103).

في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن طال بسببها قتالهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله متواصلين في ذات الله متعاونين على البر والتقوى[1].

مكافآت.. ومِنَح

وقد كرّم الله تعالى دار الهجرة كما كرّم أهلها من الأنصار والمهاجرين، فدفع عنها السوء والشر. روى البخاري بسنده إلى أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال»[2].

تكفل الله بحفظها وحفظ أهلها، قال النبي ﷺ : «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق»[3]. وقال: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء»[4].

---

(1) (تفسير ابن كثير، ج2، ص90).

(2) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، رقم الحديث: 1781).

(3) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، على أنقاب المدينة ملائكة، رقم الحديث: 1782).

(4) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب إثم من كاد أهل المدينة، رقم الحديث: 1778).

حرمها النبي ﷺ وقال: «إن إبراهيم حرَّم مكة ودعا لأهلها، وإني حرَّمتُ المدينة كما حرَّم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة»[1] وقال: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفَي ما بمكة من البركة»[2]. وقال: «إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها، وقال: المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. لا يدعها أحد رغبة عنه إلا أبدل الله فيها من هو خير منه. ولا يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعًا، أو شهيدًا، يوم القيامة». وفي رواية: «ولا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص، أو ذوب الملح في الماء»[3]. وقال عنها: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة، كما تأرز الحية إلى جحرها»[4]، ورغب في سكناها والموت فيها فقال: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها؛ فإني أشفع لمن يموت بها»[5].

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، رقم الحديث: 1360).

(2) (صحيح مسلم، كتاب الحج، اللهم بارك لهم في مكيالهم، رقم الحديث: 2432).

(3) (صحيح مسلم، كتاب الحج، إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة، رقم الحديث: 2426).

(4) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة، رقم الحديث: 1777)

(5) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، رقم الحديث: 3917، وصححه الألباني).

(8)
يا نبيّ اللّه، هذه داري.. وهذا بابي

إذا ذكِرَتْ الهجرة ذكِرَ معها وتعلق به الوجدان، فقد كان مثالًا رائعًا حيًّا في حب الله ورسوله، وأسوة في الكرم وحسن الضيافة، والبذل والإيثار.. فهو واحد من أولئك الأنصار الذين نصروا الله ورسوله، وكان له معهم النصيب الأوفى حيث استضاف في بيته خير إنسان على وجه الأرض، رسول الله ﷺ، فشرف بيته وازدان، وخلد ذكره بين الأنام، وارتبط اسمه بالهجرة النبوية المباركة أينما ذكِرتْ، ومتى ترددت على الأسماع.

إنه الصحابي الجليل خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، من بني النجار، كنيته أبو أيوب الأنصاري وقد اشتهر بها، كان من السابقين من الأنصار إلى الإسلام؛ فهو من السبعين أصحاب بيعة العقبة الثانية، وقد كافأه الله عز وجل حيث بركت ناقة رسول الله ﷺ أمام داره، فكانت أول دار يسكنها النبي ﷺ بعد الهجرة، وقد مكث فيها سبعة أشهر.

«دعوها؛ فإنها مأمورة»

وعند وصول النبي ﷺ المدينة نزل بقباء - في أعلى المدينة - (فأقام أربعة عشر يومًا وأسس مسجد قباء، ثم خرج يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم، فجمع بهم بمن كان معه من المسلمين وهم مائة. ثم ركب ناقته وسار، وجعل الناس يكلمونه في النزول عليهم ويأخذون بخطام الناقة، فيقول: «خلوا سبيلها؛ فإنها مأمورة» فبركت عند مسجده اليوم، وكان مربدًا لسهل وسهيل، غلامين من بني النجار، فنزل عنها على أبي أيوب الأنصاري، ثم بنى مسجده موضع المربد بيده هو وأصحابه بالجريد واللبن، ثم بنى مسكنه ومساكن أزواجه إلى جنبه، وأقربها إليه مسكن عائشة، ثم تحول بعد سبعة أشهر من دار أبي أيوب إليها)[1].

فمن تكريم الله تعالى لأبي أيوب أن الناقة (لم تزل سائرة بالنبي ﷺ لا تمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه في النزول عليهم، فيقول لهم النبي ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة»، فسارت حتى وصلت موضع مسجده اليوم فبركت ولم ينزل عنها حتى نهضت، وسارت قليلًا، ثم التفتت ورجعت في موضعها الأول فبركت، فنزل عنها وذلك في بني النجار أخواله، وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل عليهم ليكرمهم بذلك، فجعلوا يكلمونه في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب إلى راحلته فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول:

(1) (انظر زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم، في ذكرى الهجرتين الأولى والثانية)

«المرء مع رحله»)[1]. وأخرج البخاري في صحيحه: أن النبي ﷺ قال: «أي بيوت أهلنا أقرب؟». فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري وهذا بابي، قال: «فانطلق فهيئ لنا مقيلًا»[2].

في بيت أبي أيوب

وقد اغترف أبو أيوب – رضي الله عنه – من بركة النبي ﷺ ما لم يتيسر لغيره، وعاش معه في بيت واحد، يخدمه ويكرمه، وتالله؛ فإن الكرامة كل الكرامة لأبي أيوب أن اصطفاه الله تعالى دون سائر قومه ليكون مضيفًا لنبيه ﷺ. ومن هنا كان أبو أيوب – رضي الله عنه – حريصًا غاية الحرص على راحته وعدم إيذائه موقرًا ومجلًا له، كان يتأذى أن ينام في غرفة تعلو غرفة النبي ﷺ. فعنه قال: لما نزل عليّ رسول الله ﷺ قلت: بأبي وأمي، إني أكره أن أكون فوقك وتكون أسفل مني. فقال رسول الله ﷺ: «أن أرفق بنا أن نكون في السفل لمن يغشانا من الناس». فلقد رأيت جرّة لنا انكسرت، فأهريق ماؤها فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشف بها الماء فرقًا من أن يصل إلى رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه، وكنا نصنع طعامًا فإذا رد ما بقي منه تيمّمنا مواضع أصابعه فأكلنا منه، يريد بذلك البركة،

(1) (مختصر زاد المعاد للإمام محمد بن عبد الوهاب، فصل في قدوم النبي المدينة).

(2) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، فأخذ النبي ﷺ تمرة فلاكها، رقم الحديث: 3699).

فردّ علينا عشاءه ليلة وكنا جعلنا فيه ثومًا أو بصلًا، فلم نر فيه أثر أصابعه فذكرت له الذي كنا نصنع والذي رأينا من رده الطعام ولم يأكل، فقال: «إني وجدت منه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجي فلم أحب أن يوجد مني ريحه فأما أنتم فكلوه»(1). ولا شك أن البركة قد حلت بتلك الدار وتنزلت عليها سحائب السكينة وبشائر الرحمة أن وطئت أقدامه الشريفة عتبتها فضلًا عن سكناه فيها. فيا له من فضل لا يدانيه فضل! وكان أبو أيوب وزوجه يغتنمان تلك الفرصة فيطلبان هذه البركة ويلتمسانها في تتبع أثر النبي ﷺ في فضلة طعامه.

وقد مكث النبي ﷺ سبعة أشهر في دار أبي أيوب، ولا شك أن تلك المجاورة كان لها الأثر العظيم على أبي أيوب إيمانيًّا وعلميًّا وعمليًّا، فلم يكن يسمع في تلك الدار إلا الخير، وقد شهدت إسلام الكثيرين من أهل المدينة فهي دار باركها الله عز وجل بنبيه. وقد روى أبو أيوب – رضي الله عنه – مائة وخمسة وخمسين حديثًا عن النبي ﷺ وتعلم منه ودعا بدعوته. فعن عبد الله بن سعد بن أبي وقاص، قال: قال لي أبو أيوب الأنصاري: ألا أعلمك كلمة علمنيها رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى يا عم. قال: إن رسول الله ﷺ حين نزل عليّ قال: «ألا أعلمك يا أبا أيوب كلمة من كنز الجنة؟». قلت: بلى يا رسول الله بأبي أنت وأمي. قال: «أكثر من قول لا حول ولا

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، هجرة الرسول ﷺ، بناء مسجد المدينة، ج1، ص498).

قوة إلا بالله»[1]. وأخرج ابن أبي داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي، قال: «جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري»[2].

غبطة.. وحياء

وحين أتفكر في مكث النبي ﷺ في دار أبي أيوب رضي الله عنه، فإنني أغبط أبا أيوب وزوجه - رضي الله عنهما - على أعظم ضيف في الوجود استضافه بيتهما الطيب، وأتمنى أن أكون مكانهما! فقد نالا شرف الخدمة.. لكني مع التفكر أسائل نفسي على استحياء، هل سأفعل مع نبي الله ﷺ ما فعل أبو أيوب؟ فتشتد ضربات قلبي رهبة ويخفق شفقة وخشية على نفسي، وأطرق برأسي حياء وخجلًا من رسول الله ﷺ.

ماذا لو كان النبي ﷺ في بيوتنا؟ إنه سؤال يحتاج منا جميعًا لإجابة عملية دقيقة حتى ننجح في اختبار الابتلاء. هل حقًّا بيوتنا الآن مجهزة لاستقبال النبي ﷺ؟ تُرَى لو تخيل كل منا أن رسول الله ﷺ سيزوره، ويحل عليه ضيفًا

(1) (المعجم الكبير للطبراني، باب الخاء، باب من اسمه خالد، رقم الحديث: 3801، رواه الطبراني في الكبير والأوسط بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات).

(2) (الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، النوع العشرون في معرفة حفاظه ورواياته، ج1، ص249).

كريمًا في بيته الآن، كيف سيعدّ البيت لاستقباله؟ وكيف سيستقبله، هل سيكرم ضيافته، هل سيقوم بحقه وواجبه، وهل يصبر على ترك شهوات نفسه أمام حضرته، وهل سيُخفي ما خفي عن أعين الناس وقد أرخى الله علينا فيها ستره؟ ماذا سيتكلم في مجلسه، كيف سيتلقى حديثه، مذا يفعل مع أوامره وشرعه، وفي نهاية وقت الزيارة هل سيودعه على حسن العهد والوعد بالوفاء له حتى يلقاه على الحوض ويجاوره في الفردوس الأعلى برحمة الله المنان؟

لا شك أن في بيوتنا أشياء نحتاج أن نتخلص منها حتى لا يراها فيغضب منا، ولا ريب أن في قلوبنا آفات تظهر على فلتات الألسنة لا بد أن نداويها، وأن لنا عورات لا نريد أن يطلع عليها حياء واستخفاء وقد سترها الله علينا أمام عباده، فما ظننا إن كان من سيطلع عليها أو يجاورها هو رسول الله ﷺ؟

فإن كان النبي ﷺ قد مات وأن زيارته لنا كما زار أبا أيوب لن تكون، فإن الله تعالى حيّ لا يموت ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

وإن كان أبو أيوب وزوجه أكرما نبي الله ﷺ في حياته فإن بإمكاننا نحن أن نكرمه بعد أن مات، بإيماننا الكبير به وبطاعته وحبه واقتفاء أثره

(1) (سورة المجادلة، الآية: 7).

(2) (سورة الحديد،الآية: 4).

وإحياء سنته والدعوة إلى دينه والتخلق بخلقه، وتالله سيكون معنا رسول الله ﷺ بذلك كل لحظة بل كل طرفة عين، فلن ننساه أو نغفل عنه، وستراه قلوبنا وإن غاب عن أعيننا.

حب أبي أيوب للنبي ﷺ

كان أبو أيوب يحب النبي ﷺ حبًّا شديدًا لا مجال للادّعاء فيه، بل ظهر هذا الحب مترجمًا في أعماله وأحواله، فقد جعل من نفسه حارسًا له ليلة بنائه بزوجه صفية رضي الله عنها، خوفًا عليه منها.. قال ابن إسحاق: ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر أو ببعض الطريق، وكانت التي جملتها لرسول الله ﷺ ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك. فبات بها رسول الله ﷺ في قبة له. وبات أبو أيوب خالد بن زيد، أخو بني النجار متوشحًا سيفه، يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ فلما رأى مكانه قال: «ما لك يا أبا أيوب؟» قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلتَ أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني»[1].

وقد دعا له النبي ﷺ مرة أخرى، وكان ذلك بعد فتح مكة، وكان رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة فسقطت على لحيته ريشة فابتدر إليه أبو أيوب، فأخذها

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، ذكر المسير إلى خيبر، ج2، ص340).

فقال له النبي ﷺ: «نزع الله عنك ما تكره»[1]، وعن سعيد بن المسيب أن أبا أيوب أخذ من لحية النبي ﷺ شيئًا، فقال النبي ﷺ: «لا يصيبك السوء أبا أيوب»[2].

أبو أيوب مجاهدًا وشهيدًا

شهد أبو أيوب – رضي الله عنه – بدرًا والمشاهد كلها، وكان شجاعًا صابرًا تقيًّا محبًّا للغزو والجهاد، وقد تحرك مع الجيش المتوجه للقسطنطينية؛ حيث استشهد هناك في السنة الثانية والخمسين للهجرة ودفن هناك. فعن أبي عمران التجيبي قال: «غزونا القسطنطينية، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فصففنا صفين، ما رأيت صفين قط أطول منهما، ومات أبو أيوب الأنصاري في هذه الغزاة، وكان أوصى أن يدفن في أصل سور القسطنطينية، وأن يقضى دين عليه، ففعل»[3].

وأخرج الإمام أحمد عن أبي ظبيان قال: (غزا أبو أيوب – رضي الله عنه – مع يزيد بن معاوية، قال: فقال: إذا أنا مت فأدخلوني في أرض العدو، فادفنوني تحت أقدامكم حيث تلقون العدو. قال: ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»).

(1) (المعجم الكبير للطبراني، بَابُ الْخَاءِ، بَابُ مَنِ اسْمُهُ خَالِدٌ، خَالِدُ بْنُ زَيْدٍ، رقم الحديث: 3941. قال الشوكاني: إسناده رجاله ثقات).

(2) (شعب الإيمان للبيهقي، الأربعون من شُعَب الإيمان..، فصل في الأخذ من اللحية والشارب، رقم الحديث: 5951).

(3) (المستدرك على الصحيحين، كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ذكر مناقب أبي أيوب).

(9)
شقيقة الرجل ودورها في الهجرة

كانت شقيقة الرجل في الهجرة، بل فاقت كثيرًا من الرجال، وضربت لنا القدوة الحسنة في قدرتها على تخطي الصعاب والخروج من الأزمات، ولو أدى ذلك إلى الغمار بنفسها وسلامتها، ولو أدى إلى هجر الوطن والبعد عن الأهل والصديقات.

لم تكن هي تلك المرأة التي لا همّ لها ولا مأرب، ولا هدف لها ولا غاية في هذه الحياة، ولم تكن تلك المرأة التي تشغلها سفاسف الأمور ودنيا اللهو والشهوات عن التضحية والجود بما تملك في سبيل الله، فكان أن شاركت في الهجرة المباركة، وكان لها منها نصيب أوفى في بنيان هذه الأمة؛ لتضرب أعظم مثال في الشجاعة والفداء حبًّا لله ورسوله، ولتكون قدوة للنساء المسلمات على مر الأيام.

وحين أتحدث عن شقيقة الرجل لا يسعني إلا أن أبدأ بدورها في تثبيت أركان الإسلام منذ الوهلة الأولى لبزوغ شمسه وتنزّل الوحي على نبي الله ﷺ، ثم أتبع ذلك بذكر نماذج لا زالت تعيش في قلوبنا حيّة رغم مرور الأزمان، حيث مشاركتها الفعالة في هجرة النبي ﷺ القلبية وهجرته البدنية، أو هجرتها هي في سبيل الله.

أولى المهاجرات

لقد كانت أولى المهاجرات إلى الله عز وجل السيدة خديجة رضي الله عنها، لم تكن هجرتها هي الهجرة المتعارف عليها، بل هجرت ما كان عليه القوم آنذاك في مكة من عبادة الأوثان، ولم تكتف بذلك، بل يسرت لزوجها ﷺ هجرته القلبية إلى الله عز وجل في غار حراء حيث الخلوة والمناجاة، ومن ثَم تنزل الوحي عليه، فكانت أول المؤمنين به، وحفظ لها التاريخ قولتها المشهورة له: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1]. فما أعظمها من مهاجرة!

كما برز على ساحة الهجرة شخصيات نسائية رائعة أعلنت عن مبدأ المشاركة بين الرجل والمرأة في متطلبات الإيمان بالله، وفي بناء الأمة وصناعة الرجال، وردت على خصوم الإسلام الذين يزعمون أن المرأة المسلمة مظلومة دومًا مهضومة الحقوق أبدًا، مسلوبة الإرادة، مهيضة الجناح، وللأسف فقد انجرف نحو هذا التيار بعض بناتنا ونسائنا ممن يتكلمن بألسنتنا، وقد انتهجن نهجه فظننّ أن حجاب المرأة قيد لها، وأن إنفاق الرجل عليها وقوامته لها إهانة وتسلط، وزعمن أن طاعة المرأة

(1) (صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، رقم الحديث: 4).

لزوجها عبودية وضعف، وأن رعاية وتربية أولادها سجن لها وحبس!

أما المرأة المسلمة في تاريخ الإسلام فقد شاركت في صنع الأمة، دافعت أولًا عن دينها ووقفت في وجه الطغاة لتثبت على عقيدتها التي اختارتها، فكانت رجلًا! يصدق فيها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[1]. فكانت سمية ممن قضى نحبه شهيدة في سبيل الله عز وجل قبل أن يكون الرجال! شأنها في ذلك شأن أنس بن النضر – رضي الله عنه – الذي نزلت فيه وفي أمثاله هذه الآية الكريمة.

ومن النساء مَن رفضت القهر والظلم الواقع المتفشي في ذلك الوقت، وخشيت أن تفتن في دينها ويجرفها تيار الوثنية الذي تعج به مكة آنذاك، فصار بها الحال أن هاجرت مرتين وكتبت من المهاجرات، كما فعلت الصحابية الجليلة أسماء بنت عميس رضي الله عنها، فقد خرجت مع زوجها جعفر بن أبي طالب مهاجرة إلى الله عز وجل، هجرة أولى إلى الحبشة، ثم هجرة ثانية إلى المدينة حيث النبي ﷺ، فهي صاحبة الهجرتين ومصلية القبلتين، وقد جاءت النبي ﷺ وقالت له: يا رسول الله، إن رجالًا يفخرون علينا ويزعمون أنا لسنا من المهاجرين الأولين، فقال ﷺ:

(1) (سورة الأحزاب، الآية: 27).

«بل لكم هجرتان، هاجرتم إلى الحبشة، ثم هاجرتم بعد ذلك»[1]، «إن للناس هجرة واحدة، ولكم هجرتين»[2].

ومن النساء أيضًا من سبقت جميع النساء في هجرتها من مكة إلى المدينة، فكانت أول المهاجرات إليها، كما سبقت قبل ذلك وكانت من المهاجرات من مكة إلى الحبشة، وهي أم المؤمنين أم سلمة هند بنت حذيفة بن المغيرة رضي الله عنها، ولهجرتها من مكة إلى المدينة قصة مشهورة؛ حيث حبسها أهلها عن الخروج، وفرق بينها وبين ولدها وبين زوجها، فصبرت وثبتت حتى كتب الله لها الهجرة.

بطلة وفدائية في الهجرة النبوية

أما عن هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة فلا تذكر إلا ويذكر معها الفدائية الكبيرة والمؤمنة الصادقة والمرأة المجاهدة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، فقد كان لها دور خلده الله لها وأحسن به ذكرها بين الأنام، وتالله فإن هذا بعض جزاء الإخلاص والعمل الصالح، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾[3]. ولا يسعني إلا أن أقدم لبناتنا ونسائنا هذا المثال الرائع لهذه المرأة المباركة التي ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة،

(1) (فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، كتاب المغازي)

(2) (صحيح ابن حبان، رقم الحديث: 7350).

(3) (سورة الشورى، الآية: 36).

وأسلمت مع السابقين الأولين فكان ترتيبها الثامنة عشرة، وهي أخت أم المؤمنين عائشة من الأب، أما زوجها فهو الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة، من بيت شرف وكرم وتقوى، فأبوها وأمها وابنها وأختها من الصحابة رضي الله عنهم جميعًا[1].

أما عن قصتها في هجرة النبي ﷺ فتحكيها هي، فتقول: صنعت سفرة رسول الله ﷺ، في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، قالت: فلم نجد لسفرته ولا لسقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر: والله ما أجد شيئًا أربط به إلا نطاقي، قال: فشقيه باثنين، فاربطي بواحد السقاء، وبالآخر السفرة، ففعلت، فلذلك سميت ذات النطاقين[2]. و(النطاق) ما تشد به المرأة وسطها.

كانت – رضي الله عنها – شجاعة لا تأبه بالمتاعب والمصاعب، كان كل همها هو نجاة النبي ﷺ وأبيها أبي بكر رضي الله عنه، فكانت تستخفي عن الأنظار ليلًا فتأتيهما بالطعام متخفية إذا جن الليل واشتد الظلام وهما في الغار، وتحدثهما عن أخبار المشركين.

---

(1) (انظرعظماء الإسلام لمحمد سعيد مرسي، ومؤمنات لهم عند الله شأن، للدكتور محمد بكر إسماعيل).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو، رقم الحديث: 2817).

وقد حفظت أسماءُ سرَّ رسول الله ﷺ في هجرته ولم تفشه أو تدل على وجهته، قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم عن عروة بن الزبير عن عائشة، أنها قالت: كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر، أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشيًّا، حتى إذا كان الذي أذن الله فيه رسوله في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث. فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند رسول الله أحد إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ: أخرج عني مَن عندك! قال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي. وما ذاك فداك أبي وأمي؟ قال: إن الله أذن لي بالخروج والهجرة. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة. قال ابن إسحاق: ولم يعلم – فيما بلغني – بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج – يقصد نوى الخروج – إلا عليّ وأبو بكر وآله[1].

ومع أنها كانت تتردد عليهما في غار ثور، إلا أنها كانت نعم الحافظة للسر الأمينة عليه، المقدرة لخطورة الموقف، وقد سألها أبو جهل عن أبيها أبي بكر حتى يعرف مكان النبي ﷺ فلم تخبره، فلطمها على وجهها فطرح منها قرطها

(1) (السيرة النبوية لابن هشام، هجرة الرسول ﷺ، حديث هجرته ﷺ إلى المدينة، ج1، ص484).

لكنها لم تضعف، فقد أثبتت بهذا الموقف أن المرأة المسلمة لا تقل إيمانًا عن الرجل، وأنها أهل لحمل المسئولية وقادرة على حفظ السر والكلمة إن وكِّل لها ذلك، جديرة بتخطي الصعاب لتحقيق الأهداف العالية خاصة إذا كان الهدف يتعلق بمصير الإسلام والمسلمين، وأن المرأة ليست كما يشاع ويتردد من أنها - بصفة عامة - لا تؤتمن على سرّ، فهذا تعميم ليس في محله.

المهاجرة إلى الله

بعد أن نجا النبي ﷺ واستقر في المدينة، هاجرت أسماء بعد ذلك إليها، كانت تحمل بين أحشائها طفلها، لم يمنعها هذا الحمل من الهجرة، بل سارعت للحاق بركب المهاجرين لتكون معهم ومنهم. قال ابن كثير في البداية والنهاية: (ثبت من غير وجه عن هشام عن أبيه أنها خرجت بعبد الله من مكة مهاجرة، وهي حبلى به، فولدته بقباء أول مقدمهم المدينة، فأتت به رسول الله ﷺ فحنكه وسماه عبد الله ودعا له، وفرح المسلمون به؛ لأنه كانت اليهود قد زعموا أنهم قد سحروا المهاجرين فلا يولد لهم ولد في المدينة، فلما ولد الزبير كبر المسلمون)[1].

وفي رواية مسلم: «خرجت أسماء بنت أبي بكر، حين هاجرت، وهي حبلى بعبد الله بن الزبير فقدمت قباء فنفست بعبد الله بقباء. ثم خرجت

(1) (البداية والنهاية لابن كثير، ثم دخلت سنة ثلاث وسبعون، ترجمة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، ج12، ص187).

حين نفست إلى رسول الله ﷺ ليحنكه، فأخذه رسول الله ﷺ منها فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة. قال: قالت عائشة: فمكثنا ساعة نلتمسها قبل أن نجدها. فمضغها ثم بصقها في فيه. فإن أول شيء دخل بطنه لريق رسول الله ﷺ. ثم قالت أسماء: ثم مسحه وصلى عليه وسماه عبد الله. ثم جاء، وهو ابن سبع سنين أو ثمان، ليبايع رسول الله ﷺ. وأمره بذلك الزبير، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلًا إليه. ثم بايعه»[1].

هذه هي أسماء

هذه هي أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما، لقد تُوِّجتْ بطلة في رحلة الهجرة النبوية، ونالت وسام الشجاعة من الدرجة الأولى، وقد شهدت فيما بعد موقعة اليرموك مع زوجها الزبير، وأبلت فيها بلاء حسنًا.

روت عن النبي ﷺ ستة وخمسين حديثًا منها اثنان وعشرون في الصحيحين، وكانت شاعرة ذات منطق وبيان.

وكما جادت بنفسها في سبيل الله؛ كانت تجود بما عندها من قليل أو كثير، مسارعة في الخيرات، وخوفًا من أن يعاجلها الموت فتموت وفي بيتها ما تتصدق به. يروي ابن سعد في الطبقات الكبرى أن أسماء كانت تمرض المرضة، فتعتق كل مملوك لها؛ خوفًا من أن تموت وتترك خلفها مالًا لم تتصدق به.

(1) (صحيح مسلم، كتاب الآداب، ولد لي غلام فأتيت به النبي ﷺ، رقم الحديث: 2146).

توفيت – رضي الله عنها – ولها من العمر مائة سنة، ولم يسقط لها سن، ولم ينكر لها عقل، وماتت ضريرة، وكانت آخر من مات من المهاجرات، فرضي الله عنها وجمعنا معها برحمته في جنات النعيم.

(10)
الأماناتُ أمـَانة

أنْ يودِعَه جاره أو أحد معارفه وديعة ليحفظها له، أو يعهدَ إليه بشيء ذي بال وقيمة يخشى عليه اللصوص ويخاف عليه الضياع؛ لهو أمر لا غرابة فيه، ولا ينكره أحد.. أمّا أن يترك وديعته عنده يستأمنه عليها وهو يعاديه ويؤلب الناس على عداوته ويصدهم عن تصديقه ويتهمه بالكذب والافتراء على الله عز وجل؛ لهو أمر يحيّر العقل ويدعو إلى العجب! إذ كيف يأتمنه على ماله وفي نفس الوقت يتهمه بالكذب وعدم الأمانة في تبليغ رسالة الله! وكيف يأتمنه على متاع زائل غَرور، وفي الوقت ذاته يتهمه في أمانة البلاغ.. أمَا وإن هذا كله قد حدث من مشركي مكة تجاه نبي الله ﷺ مع مكرهم به وتخطيطهم لقتله فإنه ولا شك ينبيء عن عظيم أمانته وصدقه وورعه، فمن يَصدق مع الناس وهم لا يملكون له نفعًا ولا ضرًّا؛ سيكون صادقًا أمينًا مع الله العليم السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، وبيده النفع والضر سبحانه.

خلق الأمانة تجلى في رحلة الهجرة

لقد كان في الهجرة النبوية درس عظيم ودعوة صريحة لكل منّا، درس يدعو المسلم ويعلمه أن يكون أمينًا ورعًا مع الناس جميعًا ولو كانوا أعداءه أو مخالفيه، اقتداء بالنبي ﷺ الذي ضرب لنا أعظم الأمثلة في هذا الخلق الرائع، ولا خير فينا إن لم نعقل هذا الدرس ونعيه ونطبقه على أرض الواقع، كما لا خير فينا إن تخلينا عن هذا الخلق العظيم الذي نحتاج إليه في أمور حياتنا كلها، حيث التخلق به مع الله عز وجل، ومع نبيه ﷺ، ومع أنفسنا ومع الناس جميعًا.

وقد علمنا النبي ﷺ بطريقة عملية فريدة كيف نرد الحقوق إلى أهلها ولو كانوا لنا ظالمين. فحينما أخرجه قومه من مكة وخرج منها مهاجرًا إلى المدينة كان عنده ودائع كثيرة لأهل مكة، لكنه لم يفعل كما يفعل بعض الناس فينتقم ويأكل أموالهم ويثأر لنفسه، وقد خرج من بينهم مطاردًا مهدر الدم عندهم، وهم يريدون قتله أو الإمساك به، لكنه وهو الأمين الذي لم يكذب ولم يخن في حياته قط لم يترك مكة إلا بعد أن ترك ابن عمه عليّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – فيها وعهد إليه أن يرد الودائع إلى أصحابها.

إنه موقف عظيم يدعو للتفكر والتأمل، ويا لها من أمانة! يؤذَى منهم وأيّ أذى، يطلبه قومه، يطاردونه، يريدون قتله، ومن قبل ذلك كذبوه وناصبوه العداء بكل أشكاله، ومع هذا لم يأكل أموالهم ولم يستحلها لنفسه

تعويضًا عما لحقه من ضرر، وكان بإمكانه أن يفعل كما فعل مشركو مكة حين نهبوا أموال وبيوت المؤمنين المهاجرين بعد هجرتهم منها.

قال ابن إسحاق: (أما عليّ فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته)[1].

النبي ﷺ.. والدعوة إلى الأمانة

كان النبي ﷺ يلقب في الناس بالأمين، وشهد له أصدقاؤه وأعداؤه بذلك، فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: أخبرني أبو سفيان: أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت: أنه أمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة نبي[2].

وقال النجاشي للمهاجرين: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟... فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن

(1) (فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي).

(2) (فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد).

نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام»[1].

مفهوم الأمانة

والأمانة ليست محصورة في الودائع كما يفهم البعض، وإنما هي أوسع من ذلك، إذ هي مطلوبة في كل أمر من أمور حياتنا وفي كل طاعة وعمل؛ لذا فقد ذكرت في القرآن الكريم كصفة من صفات عباد الله المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾[2] قال القرطبي في تفسيره: الأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولًا وفعلًا، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك؛ وغاية ذلك حفظه والقيام به. والأمانة أعم من العهد، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد[3].

وقد أمرنا الله جميعًا بأداء الأمانات.. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[4].

(1) (مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، بعث الله إلينا رسولًا منّا، رقم الحديث: 21992).
(2) (سورة المؤمنون، الآية: 8).
(3) (تفسير القرطبي، ج12، ص100).
(4) (سورة النساء، الآية: 58).

والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلامات والعدل في الحكومات. وهذا اختيار الطبري، والمعنى كما يقول في تفسيره: إن الله يأمركم يا معشر ولاة أمور المسلمين أن تؤدوا ما ائتمنتكم عليه رعيتكم من فيئهم وحقوقهم وأموالهم وصدقاتهم إليهم على ما أمركم الله، بأداء كل شيء من ذلك إلى من هو له بعد أن تصير في أيديكم، لا تظلموها أهلها ولا تستأثروا بشيء منها ولا تضعوا شيئًا منها في غير موضعه، ولا تأخذوها إلا ممن أذن الله لكم بأخذها منه قبل أن تصير في أيديكم؛ ويأمركم إذا حكمتم بين رعيتكم أن تحكموا بينهم بالعدل والإنصاف، وذلك حكم الله الذي أنزله في كتابه وبينه على لسان رسوله، لا تعدوا ذلك فتجوروا عليهم. قال القرطبي: وتتناول كذلك مَن دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه؛ والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى، وروي هذا المعنى مرفوعًا من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها – أو قال – كل شيء إلا الأمانة، والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الحديث، وأشد ذلك الودائع» (ذكره أبو نعيم الحافظ في الحلية). وممن قال إن الآية عامة في الجميع البراء بن عازب وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب قالوا:

الأمانة في كل شيء في الوضوء والصلاة والزكاة والجنابة والصوم والكيل والوزن والودائع، وقال ابن عباس: لم يرخص الله لمعسر ولا لموسر أن يمسك الأمانة. وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها: الأبرار منهم والفجار[1].

الإنسان.. وحمل الأمانة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[2]. عن ابن عباس: الأمانة: الفرائض، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا عليه من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله تعالى: «وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا» أي غرًّا بأمر الله.. وقال آخرون: هي الطاعة. وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها. وقال قتادة: الأمانة الدين والفرائض والحدود. وقال ابن مسعود: هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها. وروي عنه أنها في كل الفرائض، وأشدها أمانة المال. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة. وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف

(1) (انظر تفسير الطبري، ج8، ص494، وتفسير القرطبي، ج5، ص221).

(2) (سورة الأحزاب، الآية: 72).

وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله وبالله المستعان. وعن مجاهد أنه قال: عرضها على السماوات، فقالت: يا رب حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر وما أريد ثوابًا ولا أحمل فريضة. قال: وعرضها على الأرض، فقالت: يا رب غرست في الأشجار وأجريت في الأنهار وسكان الأرض وما ذكر وما أريد ثوابًا ولا أحمل فريضة. وقالت الجبال مثل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1] في عاقبة أمره. وقيل: إن الله تعالى عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين، ويجعل لهن ثوابًا وعقابًا ويستأمنهن على الدين، فقلن لا نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثوابًا ولا عقابًا، قال: وعرضها الله تبارك وتعالى على آدم، فقال بين أذني وعاتقي. قال ابن زيد فقال الله تعالى له: أما إذا تحملت هذا فسأعينك، أجعل لبصرك حجابًا فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجابه، وأجعل للسانك بابًا وغلقًا فإذا خشيت فأغلق، وأجعل لفرجك لباسًا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك[2].

(1) (سورة الأحزاب: الآية 72).

(2) (انظر تفسير ابن كثير ج6، ص488).

كن أمينًا.. وإياك والخيانة

دعا النبي ﷺ إلى التخلق بخلق الأمانة بصفة عامة، كما حث عليه ودعا إليه في حياتنا اليومية ومعاملاتنا فيما بيننا، من ذلك قوله: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»[1]، وقال: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه ثمَّ ينشر سرها»[2].

وقال: «الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ وربما قال يعطي ما أمر به كاملًا موفرًا طيبًا به نفسه فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين»[3] أي هو ورب الصدقة الذي أخرجها في الأجر سواء. وقال: «من غسَّل ميتًا فكتم عليه غفر اللهُ له أربعين مرةً...»[4]، وقال: «من غسل ميتًا فأدى فيه الأمانة

---

(1) (سنن الترمذي، كتاب البيوع عن رسول الله ﷺ، يا معشر التجار...، رقم الحدبث: 1209، وذكره الألباني في صحيح الترغيب وقال صحيح لغيره)

(2) (صحيح مسلم، كتاب النكاح، إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، رقم الحديث: 1437).

(3) (صحيح البخاري، كتاب الزكاة، إذا تصدقت المرأة من طعام زوجها...، رقم الحديث: 1371).

(4) (الألباني، صحيح الترغيب، رقم الحديث:3492).

ولم يفش عليه ما يكون منه عند ذلك خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[1] فتخلق أيها المسلم بخلق نبيك ﷺ، واقتدِ بصحبه الكرام، وقد قال لنا: «إن لكل أمة أمينًا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[2]. فخصه بأمانة هذه الأمة؛ لأن عنده من الزيادة فيها ما ليس لغيره، كما خص الحياء بعثمان رضي الله تعالى عنه، والقضاء بعلي رضي الله عنه[3].

وكن أمينًا مع الله بأداء ما افترض عليك بأمانة وإتقان.

كن أمينًا مع النبي ﷺ بطاعته والعمل بسنته.

كن أمينًا مع نفسك، واعرف لها حقها من الإصلاح والتقوى والمحاسبة والتقويم، وأنقذها من نار جهنم.

كن أمينًا مع الناس؛ احفظ أموالهم ولا تأكلها بالباطل ولو خالفوك، ولو كانوا غير مسلمين، لا تحل لنفسك منها ما ليس لك، رد الودائع لأصحابها، ولا تخن جليسك ولا تفش سره؛ فقد قال النبي ﷺ: «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس، مجلس يُسفك فيه دم حرام، ومجلس يُستحل فيه فرج حرام،

(1) (مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، من غسّل ميتًا فأدى فيه الأمانة، رقم الحديث: 24360. ضعفه الألباني).

(2) (صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه، رقم الحديث: 2419).

(3) (فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي)

ومجلس يُستحل فيه مال من غير حق»[1]، واصدق عند النصيحة وأخلص المشورة؛ فقد قال النبي ﷺ: «إن المستشار مؤتمن»[2].

كن أمينًا وإياك والخيانة؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[3]. وادع الله تعالى أن يجنبك الخيانة كما كان يدعو البي ﷺ: «وأعوذ بك من الخيانة؛ فإنها بئست البطانة»[4].

واعلم أن الأمانة ثقيلة وكبيرة ومتعددة وكثيرة، فعلمك أمانة، وعملك أمانة، والدعوة إلى الله أمانة، وعباداتك أمانة، وجوارحك أمانة، جسمك وصحتك أمانة، عقلك وقلبك أمانة، وقتك أمانة، وظيفتك أمانة، حقوق الزوجين أمانة، حقوق الناس أمانة، الأخوّة أمانة، المال أمانة، الأعراض أمانة، الكلمة أمانة، المسئولية أمانة، تربية الولد أمانة، اليتيم والأرملة أمانة، المسكين والضعيف أمانة، بلدك أمانة، صوتك أمانة، شهادتك أمانة، ومجمل ذلك أن عمرك كله أمانة فانظر كيف تحفظه، وبماذا تعمره.

---

(1) (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، المجالس بالأمانة، رقم الحديث: 14283. ذكره الألباني في السلسلة الضعيفة وضعَّفه)

(2) (سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، رقم الحديث: 2369، وصححه الألباني).

(3) (سورة الأنفال، الآية: 27).

(4) (صحيح ابن ماجه، رقم الحديث: 2723، وحسنه الألباني).

(11)
أحـَـبّ البقاع إلى الله

إنه مجتمع طاهر ينبض بالإيمان، وينضح بالأخوّة، ويشع بنور اليقين، مجتمع لا يجتمع عادة فيه إلا الأطهار الأبرار الذين هداهم الله فأحبهم وأحبوه، مجتمع كله أمن وسلام فلا مكان فيه للعداوة والبغضاء التي تعشش في النفوس المريضة؛ لتطمس ما بقي فيها من نور الفطرة.

ومنذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها أقدام النبي ﷺ الطاهرة أرض المدينة بدأ بإيجاد هذه البقعة الطيبة التي تجتمع فيها الأبدان وتأتلف فيها الأرواح، ويُذكر فيها اسم الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار، بالعشي والإبكار.

وحين تتراصّ الصفوف فيه في أوقات معلومات متى ينادي المنادي للصلاة، وتلتصق الأقدام بالأقدام، وتلتحم الأكتاف بالأكتاف في مظهر تنصهر فيه فوارق الجنس واللون والطبقة والنسب والحسب والجاه، فالأمير والوزير والغني والفقير على أرضه أمام الله سواء، لا فضل لأحد منهم على الآخر إلا بما في قلبه من إيمان يظهر في تحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله.

إن هذه البقعة المباركة التي أضافها الله تعالى إلى نفسه إضافة تكريم وتشريف هي أول ما حرص النبي ﷺ على تأسيسها وبنائها؛ لتكون هي المسجد محل العبادة والمدرسة والجامعة لكل المسلمين، وإنها لأحب وأحسن البقاع إلى الله تعالى كما أخبرنا النبي ﷺ حين قال: «أحب البقاع إلى الله المساجد»[1]. وكما جاء عن جبير بن مطعم أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ البلدان أحبُّ إلى الله، وأيُّ البلدان أبغضُ إلى اللهِ؟ قال: لا أدري، حتى أسأل جبريل، فأتاه جبريل، فأخبره: أن أحسن البقاعِ إلى اللهِ المساجد، وأبغض البقاعِ إلى اللهِ الأسواق»[2].

أول مسجد أسس على التقوى

وكان النبي ﷺ في مكة مع أصحابه في حال من الاستضعاف لا تسمح لهم ببناء مسجد عام يضمهم جميعًا للصلاة فيه، فقد كان المسلمون يجتمعون سرًّا، وكانوا يصلون في الخفاء، وربما أعلن بعضهم صلاته فناله من الأذى الكثير. فكانت الهجرة تحولًا كبيرًا لهم من الاستضعاف بمكة إلى التمكين بالمدينة؛ حيث كان أول ما فعل النبي ﷺ فيها أن بدأ ببناء مجتمع المسلمين وتأسيسه منذ اللحظة الأولى دونما تأخر، وكانت أولى لبنات البناء هي إيجاد المكان المناسب الذي يتصل فيه العبد بخالقه، ويناجيه ويدعوه

(1) (أخرجه أحمد والبزار وصححه الحاكم وابن تيمية).
(2) (الألباني، صحيح الترغيب، رقم الحديث: 325، وقال حسن صحيح).

ويطلب منه المدد والثبات والقوة، ويجتمع الأخ فيه بإخوانه يتعاونون معًا على البر والتقوى، وليس ذلك إلا المسجدُ رمزُ التوحيد ومنبعُ العلم ومحلُّ التزكية وساحةُ التربية؛ حيث تعنو الوجوه وتسجد الجباه وتخضع القلوب لله وحده لا شريك له، بعيدًا عن فتنة الإيذاء والصد عن السبيل؛ لذا بنى النبي ﷺ مسجد قباء، وصلى فيه أول جمعة بالمسلمين، ثم بنى مسجده بالمدينة، وقيل إنه أول مسجد أسس على التقوى.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: تمارى رجلان في المسجد الَّذي أُسِّس على التقوى من أول يوم! فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي هذا»[1].

قال الشيخ الغزالي رحمه الله: (والمروي أن الرسول ﷺ بنى مسجده الجامع حيث بركت ناقته، في مربد لغلامين يكفلهما أسعد بن زرارة، وكان الغلامان يريدان النزول عنه لله، فأبى رسول الله ﷺ إلا ابتياعه بثمنه... واشترك الرسول ﷺ وأصحابه في حمل اللبنات والأحجار على كواهلهم... وتم المسجد في حدود البساطة، فراشه الرمال والحصباء وسقفه الجريد، وأعمدته الجذوع، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه.. هذا البناء المتواضع الساذج هو الذي ربَّى ملائكة البشر، ومؤدبي الجبابرة

(1) (صحيح النسائي، رقم الحديث: 696، وصححه الألباني).

وملوك الدار الآخرة، في هذا المسجد أذن الرحمن للنبي يؤم بالقرآن خيرَ من آمن به، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل. إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي، تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادي فهو ساحة للعبادة، ومدرسة للعلم، وندوة للأدب، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هي لباب الإسلام)[1].

بني المسجد في المدينة، (وبهذا تجمعت الأندية، والتقت الأحياء، واقتربت القبائل، وتحابت البطون، وانقلبت التفرقة إلى وحدة، وانتقلت التجزئة إلى انسجام، ولم تعد في المدينة جماعات، بل جماعة واحدة، ولم تعد زعامات، بل قائد واحد، هو رسول الله ﷺ، يتلقى من ربه الأوامر والنواهي، ويعلّم أمته)[2].

فصار المسلمون جسدًا واحدًا لا يتجزأ، وأسرة كبيرة يضمها بيت واحد، وقلبًا كبيرًا يجتمع على حب الله ورسوله.

(ولم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات الخمس فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليمَ الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقي وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون وبث الانطلاقات،

---

(1) (فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي).

(2) (انظر التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ج2).

وموضعًا لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية. وكان مع هذا كله دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون)[1].

المسجد والتربية الإيمانية

لا أحد ينكر دور المسجد في تربية المسلم التربية الإيمانية العالية على أسس عقدية وأخلاقية راسخة منذ نعومة أظفاره، وإن اهتمام النبي ﷺ ببناء المسجد فيه دلالة واضحة على أهميته ودوره الإيجابي في بناء الأمة، وكذلك يدل على أهمية فريضة الصلاة وفضل المحافظة عليها، وفضيلة التعلق بالمساجد، وقد شهد الله تعالى لعمارها بالإيمان فقال: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[2]. وقال ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا عليه بالإيمان»[3]، قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾[4]. وقال بعض السلف: إذا رأيتم الرجل يعمر المسجد فحسنوا به الظن[5].

---

(1) (الرحيق المختوم، صفي الدين المباركفوري)

(2) (سورة التوبة، الآية: 18).

(3) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 1721)

(4) (سورة التوبة، التوبة: 18).

(5) (تفسير القرطبي، ج8، ص27).

كما أن المسجد إذا قام بدوره حق القيام فإنه سيخرج لنا بإذن الله أحسنَ اللبنات المؤمنة التي تتربى في جنباته تنهل من دروس العلم، وتلازم حلق الذكر وتلتف حول مائدة القرآن الكريم، ينتهجون المنهج الوسط بلا غلو ولا تفريط على أيدي ورثة الأنبياء العلماء الربانيين الأتقياء الأنقياء، والنتيجة ستكون رائعة. وقد قال النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عدل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[1]. فما هذه الأصناف السبعة من الناس إلا نتاج التربية الخالصة في بيوت الله المساجد.

إذا كنت من رواد المساجد؛ فأبشِرْ

لقد كثرت المساجد من حولنا وأخذت زخرفها وازَّيَنتْ وصار لكل حيّ مسجده، بل بُثت هنا وهناك، في أماكن العمل وقاعات الدراسة وعلى قارعة الطريق، لكن الفتور والتكاسل آفة تصيب بعضنا حين يهجر بيت الله ويصلي في بيته خاصة عند صلاة الفجر والعشاء؛ فيفوته الخير الكثير، وقد قال النبي ﷺ: "صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته،

(1) (صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، رقم الحديث: 1357).

وفي سوقه، خمسًا وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى، لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة»[1]. وقال: «أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذي ينتظر الصلاة، حتى يصليها مع الإمام، أعظم أجرًا من الذي يصلي، ثم ينام»[2]. وقال: «من غدا إلى المسجد وراح، أعد الله له نزلاً من الجنة، كلما غدا أو راح»[3]. فوجود المساجد وكثرتها نعمة لا بد لها من شكر، وشكرها يكون في عمارتها.

وفي المقابل، فإن هناك من البلدان الفقيرة في العالم من لا يجدون لهم مسجدًا يجتمعون فيه لذكر الله، إلا أن يصلُّوا في الخلاء والعراء، سقفهم فيه السماء وأرضهم فرشها التراب والحصباء، لا يقيهم من حر الشمس ولا يدفع عنهم مطر الشتاء، يمدون أيديهم لنا عطفًا واستجداء لإيجاد المسجد

(1) (صحيح البخاري، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ، رقم الحديث: 620).

(2) (صحيح البخاري، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، والله ما أعرف من أمة محمد ﷺ شيئًا إلا أنهم يصلون جميعًا، رقم الحديث: 623).

(3) (صحيح البخاري، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب فضل من غدا إلى المسجد..، رقم الحديث: 631).

لهم، وهذه فرصة للقادرين على الإنفاق في وجوه البر والخير وهو من أعظم الصدقات، وقد قال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجدًا لله، بنى الله له في الجنة مثله». وفي رواية: بنى الله له بيتًا في الجنة»[1]. وفي معظم البلدان الأوروبية لا يجد المسلمون مسجدًا لهم، وإن وجد فهو لا يسعهم، فجهودهم الذاتية لا تكفي لشراء قطعة أرض له فضلًا عن تكاليف بنائه، وهنا يجب على المؤسسات الخيرية والحكومات الإسلامية أن تساعدهم وإن كانت بعضها تقوم فعلًا بهذا جزاهم الله خيرًا إلا أن الحاجة لا زالت كبيرة للحفاظ على دين هؤلاء، فهو ليس مجرد بناء مسجد، بل بناء أرواح كادت أن تموت وسط ركام الماديات، وتزكية عقول بالإيمان كادت أن تضل في غربة الطريق، وأعرف مساجد تضيق بروادها ولا مكان خارجها للصلاة فيه، وإن وجد فلا يستطيعون من شدة البرد والمطر وتزيد الحاجة في شهر رمضان.

ألا فلننفق على هذه البقاع التي يحبها الله، وهو لن يضيع أجر المنفقين، ولنتخير المكان الأشد حاجة لوجود مسجد فيه حين ننوي البناء، وكلما كانت الحاجة إلى المسجد أكبر كان الأجر أعظم. وقد جاء عن النبي ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا علمه ونشره وولدًا صالحًا تركه ومصحفًا ورَّثه أو مسجدًا بناه أو بيتًا لابن السبيل بناه

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، من بنى مسجدًا لله تعالى، رقم الحديث: 533).

أو نهرًا أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته»[1]. فمن يبني المسجد يمكنه أن يكون سببًا في نشر العلم وتخريج الولد الصالح له ولغيره منه وتوريث المصحف بإيداعه فيه وإخراج صدقة على روادها من الفقراء.

الدور المفقود.. كيف يعود

كيف نعيد للمسجد دوره المفقود، كيف يعود كاملًا غير منقوص، وإن له لدورًا لا ينكره أحد في تخريج اللبنات المؤمنة التي تبنى بها الأمة، وانظر حولك لترى ما حلّ بساحة أمتنا من أمراض ظاهرة وباطنة، رغم وجود العديد من المساجد وارتياد الكثيرين لها للصلاة فيها، لكن المساجد – إلا قليلًا منها – لما فقدت أهم أدوارها في التربية ظهرت هذه الأمراض وكثرت، فظهر العقوق للنفس والأهل والناس والمجتمع، فهناك من يسرق ويغش سرًّا وعلنًا، ومن يرهب الآمنين ويستحل دماءهم ببلطجته وإرهابه، ومنهم من لا يحفظ حرمة بلده فيخربه ويفسد فيه ولا يصلحه ولا يحافظ على حرمة ممتلكاته، ومنهم من لا يتورع عن أكل الحرام والتعدى على الحرمات جهارًا نهارًا، ومنهم من يتهاون في أداء العبادات، ويخوض في أعراض الناس قذفًا وسبًّا وتشهيرًا، ومنهم من لا يحافظ على عرض أخته المسلمة بل يشارك في هتكه، ومَن لا تقتنع بأوامر الله فتنزع عنها حجاب الطاعة والعفة والطهارة، ومَن تتعرض

---

(1) (سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، إن مما يلحق المؤمن من عمله، رقم الحديث: 242، وحسنه الألباني).

للرجال في الطرقات متبرجة. وبالرغم من وجود الخير المقابل لهذا الشر إلا أننا كأمّة الدعوة والبلاغ والهداية علينا أن نتخلص ما استطعنا من هذه الأمراض ليكون لنا التأثير الحقيقي على غيرنا، ومن أجل ذلك وجب على المسئولين على بيوت الله أن يعيدوا لهذه المساجد دورها الكبير في إصلاح النفوس وإصلاح البيوت والمجتمعات، وأن يتحينوا لذلك كل الفرص والمواسم والمناسبات لتوعية الناس بذلك، فقد كدنا نفتقده في كثير من مساجدنا هذه الأيام، ومن أبرز تلك المناسبات وأهمها العيد الأسبوعي للمسلمين، يوم الجمعة؛ حيث الاجتماع الأخوي والموعظة الأسبوعية الجماعية المتمثلة في خطبتيها، وهي تحتاج إلى إعادة ترتيب من جديد، لتخدم الأهداف في تخريج الأجيال المؤمنة حقًّا، وعلاج قضايا الأمة وتحسين أدائها وتقويم أخلاقها وتزكية نفوسها من خلال خطبة الجمعة، لذا تتطلب أن يكون الإمام حصيفًا ملمًّا بالواقع من حوله، يعيش عصر الناس ويعرف كيف يدخل بموعظته قلوبهم، فيرتب الأولويات عند اختيار موضوع الخطبة حسب الحاجة القائمة، بحيث يتعرض فيها لما يصلحهم، يركز على الإيجابيات، ويذكر السلبيات بأسلوب راقٍ غير منفِّر، ويتحرى صحة الأحاديث التي يستدل بها، ولا يجرح أحدًا بعينه، بل يتبع منهج النبي ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا»[1].

(1) (سنن أبي داود، كتاب الأدب، إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل ما بال فلان، رقم الحديث: 4788، وصححه الألباني).

خطبة الجمعة ودورها في الإصلاح الشامل

وحبذا لو وضع كل إمام خطته لخطبة الجمعة، في صورة جدول سنوي أو دوري مع محاولة أن تلائم خطبته واقع المسلمين في مكانه، وتسد احتياجاتهم من مختلف النواحي، إيمانيًّا، واجتماعيًّا، وتربويًّا، على مستوى الفرد والجماعة والمجتمع، ذاكرًا في خطته الأهدافَ التي يريد تحقيقها، والمفاهيم التي يريد تصحيحها أو إضافتها، والقيم التي يريد إحياءها، والأخلاق التي في حاجة أن تحسن من خلال السلبيات التي يرصدها في حياة الناس وواقع معيشتهم، ثم يعدّ الموضوعات التي تخدم هذه الأهداف وتحققها، ولا يغفل أوقات المناسبات كشهر رمضان والحج وعاشوراء ومولد النبي ﷺ وهجرته، وبداية السنة الجديدة، والأجازات، والصيف، وبعض المناسبات الخاصة بغيرنا، والتي يمارسها بعض المسلمين كالكريسماس، ويوم الحب، ويوم الأم، وهكذا، ويحاول الخطيب ربط الأحداث الجارية بما يخدم أهداف خطبته، ومن هنا كانت أهمية تأهيل الأئمة والدعاة وإرشادهم وتوجيههم حتى يؤتي المسجد أكله وثماره. ويمكن تلخيص هذه الأهداف بصفة عامة في:

1 – تصحيح العقيدة.

2 – تعزيز المفاهيم الصحيحة، وتصحيح الخاطئة منها، وإضافة الجديد إليها.

3 – تربية النفس وتزكيتها.

4 – تعزيز جانب الأخلاق الحميدة والآداب الإسلامية، والتحذير من الأخلاق السيئة.

5 – الإسهام في معالجة المشكلات التي تطرأ على الساحة أسريًّا واجتماعيًّا.

6 – تقوية الأسرة وبيان دورها ومهمتها.

7 – إيجاد جيل صالح واعٍ يجمع بين أصالة الدين والحضارة المعاصرة.

8 – تعزيز جانب الأخوّة والهوية والمواطنة والدور المنوط بالمسلم في مجتمعه.

9 – اغتنام المناسبات المختلفة في حينها وتطبيقها على الواقع المعاصر وتطويعها لتحقيق هذه الأهداف.

(12)
«لا هجرة بعد الفتح»

كانت الهجرة - ولا زالت - من وسائل البحث عن أسباب الحياة الطيبة السعيدة التي يتمناها كل مهاجر، حتى إن الطيور تنشد الهجرة هي الأخرى، ولها مواسم وأوقات في حياتها البسيطة! وإن الناظر إلى تاريخ البشرية منذ القديم يجد أن الهجرة تشكل جزءًا حيويًّا مهمًّا من حياة البشر وإن اختلفت أشكالها وتنوعت أسبابها؛ فالكل أولًا وأخيرًا غالبًا ما ينشد بها تحقيق الخير والنفع له أو لغيره.

الأنبياء.. والهجرة

وقد كانت الهجرة ما قبل فتح مكة مطلوبة وفريضة على كل مسلم، بعد أن هاجر النبي محمد ﷺ منها إلى المدينة بأمر من الله عز وجل، ولم تكن هجرته حدثًا جديدًا أو مبتدعًا فقد هاجر من قبله إخوانه من الأنبياء، فهاجر سيدنا إبراهيم وزوجه سارة وابن أخيه سيدنا لوط عليهما السلام.. قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]. قال قتادة: الذي قال: «إني مهاجر إلى ربي» هو إبراهيم عليه السلام، هاجر من

(1) (سورة العنكبوت، الآية: 26).

كوثا وهي قرية من سواد الكوفة إلى حران، ثم إلى الشام ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارخ، وامرأته سارة. وقال الكلبي: هاجر من أرض حران إلى فلسطين وهو أول من هاجر من أرض الكفر. وقال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة. وقيل: الذي قال: «إني مهاجر إلى ربي» لوط عليه السلام[1].

كما هاجر سيدنا موسى عليه السلام من مصر متوجهًا نحو مدين طلبًا للأمن وخوفًا من ظلم فرعون وملئه. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[2]. وذلك لما أخبره ذلك الرجل المؤمن بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره خرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك قبله بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة «فخرج منها خائفًا يترقب» أي يتلفت «قال رب نجني من القوم الظالمين» أي من فرعون وملئه[3].

«لا هجرة بعد الفتح»

أما هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة فكانت فتحًا ونصرًا للإسلام والمسلمين، إذ صار لهم دولة تجمعهم بإخوانهم، وأصبح لهم قوة، ومُنعوا

---

(1) (تفسير القرطبي، ج13، ص312)

(2) (سورة القصص، الآية: 21 - 22).

(3) (مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ج3).

بأهل تلك الدار الطيبة، وصدق الله وعده حين قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]. فمنّ الله عليه بالفتح المبين لمكة التي خرج منها مهاجرًا خائفًا متخفيًا، فتغير الحال، وها هو يرجع إليها ليدخلها فاتحًا ظافرًا، وبينما هو في الطريق يلقاه آخر المهاجرين إلى المدينة عمه العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - وقد خرج بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا. لتنقطع بذلك الهجرة من مكة.

كما قدم إليه بعد الفتح مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد بن مسعود، وقال له: هذا مجالد يبايعك على الهجرة. قال النبي ﷺ له: «لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن أبايعه على الإسلام»[2]. أي أصبحت الهجرة غير واجبة بعد فتح مكة؛ لأن مكة أصبحت دار إيمان، وقد عز الإسلام وظهر، وكانت قبل ذلك واجبة، ليتخلص المسلمون من الأذى، ولتجتمع قواهم في المدينة، مقر دولة العدالة والحق.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[3]. قال الخطابي وغيره: كانت الهجرة

(1) (سورة القصص، الآية: 85).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، لا هجرة ولكن جهاد ونية، رقم الحديث: 2913).

(3) (صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، أي العمل أفضل؟ قال الصلاة على ميقاتها، رقم الحديث: 2631).

فرضًا في أول الإسلام على من أسلم لقلة المسلمين بالمدينة وحاجتهم إلى الاجتماع، فلما فتح الله مكة دخل الناس في دين الله أفواجًا؛ فسقط فرض الهجرة إلى المدينة، وبقي فرض الجهاد والنية على من قام به أو نزل به عدو. وقال أيضًا: كانت الهجرة أي إلى النبي ﷺ في أول الإسلام مطلوبة، ثم افترضت لما هاجر إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين، وقد أكد الله ذلك في عدة آيات حتى قطع الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾[1]. فلما فتحت مكة ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل سقطت الهجرة الواجبة وبقي الاستحباب. وكانت الحكمة في وجوب الهجرة على من أسلم ليسلم من أذى ذويه من الكفار؛ فإنهم كانوا يعذبون من أسلم منهم إلى أن يرجع عن دينه، وفيهم نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ الآية[2]، وهذه الهجرة باقية الحكم في حق من أسلم في دار الكفر وقدر على الخروج منها[3].

---

(1) (سورة الأنفال، الآية: 72).

(2) (سورة النساء، الآية: 97).

(3) (فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد والنية).

«لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة»

وعن عبد الرحمن بن أبي عوف عن أبي هند عن معاوية، قال: سمعت رسول الله – ﷺ – يقول: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[1]. وفي هذا الحديث دلالة على أن الهجرة غير منقطعة. فكيف نجمع بين هذا الحديث وقوله ﷺ «لا هجرة بعد الفتح»؟

اختلاف العلماء في الجمع بينهما:

فقال الخطابي في المعالم: كانت الهجرة في أول الإسلام فرضًا ثم صارت مندوبة، وذلك في قوله تعالى «ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيرًا وسعة» نزل حين اشتد أذى المشركين على المسلمين بمكة، ثم وجبت الهجرة على المسلمين عند انتقال رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمروا بالانتقال إلى حضرته ليكونوا معه فيتعاونوا ويتظاهروا إن حزبهم أمر وليتعلموا منه أمر دينهم. وكان عظم الخوف في ذلك الزمان من أهل مكة، فلما فتحت مكة ونجعت بالطاعة زال ذلك المعنى وارتفع وجوب الهجرة وعاد الأمر فيها إلى الندب والاستحباب، فالهجرة المنقطعة هي الفرض والباقية هي الندب.

(1) (سنن أبي داود، كتاب الجهاد، لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، رقم الحديث: 2479، وصححه الألباني).



وفي شرح السنة: يحتمل الجمع بأن يكون قوله "لا هجرة بعد الفتح" أي من مكة إلى المدينة، وقوله "لا تنقطع" أي من دار الكفر في حق من أسلم إلى دار الإسلام. انتهى[1].

الهجرة باقية إلى قيام الساعة

وعلى هذا؛ فالهجرة باقية إلى يوم القيامة، إذ يوجد من أسبابها ما يدفع الناس إليها مع التغيير المستمر في حياة البشر جغرافيًّا وثقافيًّا وأمنيًّا واقتصاديًّا، وقد روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم»[2]. وهي باقية كذلك وإن اختلفت أشكالها بدليل قوله ﷺ: «ولكن جهاد ونية». (فقد قال الطيبي وغيره: والمعنى أن الهجرة التي هي مفارقة الوطن التي كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة انقطعت، إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية، وكذلك المفارقة بسبب نية صالحة كالفرار من دار الكفر والخروج في طلب العلم، والفرار بالدين من الفتن، والنية في جميع ذلك)[3].

---

(1) (عون المعبود شرح سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت).

(2) (سنن أبي داود، كتاب الجهاد، ستكون هجرة بعد هجرة، رقم الحديث: 2482، وصححه الألباني).

(3) (تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، الهجرة على من أسلم، ص178).

الهجرة بدنية.. وقلبية

وقد تكون الهجرة بالانتقال بالبدن والجسد من مكان إلى مكان آخر، وهو ما يسمى بالهجرة البدنية، كما حدث في الهجرة من مكة إلى المدينة، وهجرة الدعاة والعلماء لنشر الدين والدعوة إليه كما كان من مصعب بن عمير ومعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري، وما يحدث من هجرة الدعاة من علمائنا في هذه الأيام للتعريف بالإسلام، أو الهجرة لطلب العلم. ومن الهجرة البدنية أيضًا الهجرة لطلب الرزق كهجرة المسلمين قديمًا للتجارة في البلاد الأخرى، التي كانوا سببًا في انتشار الإسلام بها كأندونيسيا وغيرها.

وقد تكون الهجرة قلبية وفعلية كما جاء عن عبد الله بن عمرو، قال: (قال رجل: يا رسول الله، أي الهجرة أفضل؟ قال: «أن تهجر ما كره ربك»[1]) ومنها إنكار المنكر بالقلب، أو تغيير المرء من حاله وتصحيحه كالهجرة من الشرك إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن البدعة إلى السنة، ومن الجهل إلى العلم، ومن الفرقة إلى الوحدة، ومن الاستضعاف إلى التمكين، ومن العزلة إلى الانفتاح.

(1) (سنن النسائي، كتاب البيعة، أن تهجر ما كره ربك عز وجل، رقم الحديث: 4165، وصححه الألباني).

وقد تجتمع هجرة البدن مع هجرة القلب كما كان من سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال لقومه: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي ...﴾[1]. وقد هاجر وذهَبَ إلَى الأرض المُقدَّسَة، وكهجرة أهل الكهف كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾[2]. قال ابن كثير في تفسيره: أي وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ففارقوهم أيضًا بأبدانكم فأووا إلى الكهف يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، ويهيئ لكم من أمركم الذي أنتم فيه أمرًا ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هربًا إلى الكهف فأووا إليه[3].

(1) (سورة مريم، الآية: 48).
(2) (سورة الكهف، الآية: 16).
(3) (تفسير ابن كثير، ج5، ص142).

(13)
اهجـُر ما نهى اللَّه عنه

حين نسمع حديثًا عن إخواننا الذين سبقونا بالإيمان من المهاجرين والأنصار أو نقرأ في سيرتهم العطرة التي تزخر بها كتب السير، نرى مكانهم في دين الله عِلمًا وعملًا، ومنهجًا ودستورًا، ودعوة واتباعًا، وتحاكمًا وتطبيقًا، وكيف أنهم أحبوا الله ورسوله حبًّا شديدًا جعل العمل في سبيله سهلًا وهيِّنًا، والبذل لتحقيقه إلى نفوسهم محببًا، فإذا بنا نغبطهم على تلك الحال، وتطير أفئدتنا شوقًا إليهم وتتمنى لقياهم، وتشرئب الأعناق نظرًا إلى مكانتهم ومنزلتهم التي تبوءوها، فهم الأعلام بحق، وهم النجوم الزواهر التي تستحق أن تتوَّج للفوز بكأس الإيمان بعد أن غلبوا الشهوات وانتصروا على المحرمات وحافظوا على صحة قلوبهم بهجر ما نهى الله عنه، فعاشوا وماتوا وهم مهاجرون إلى الله في كل لحظة وطرفة عين.

الهجرة باقية إلى يوم القيامة

وحينما تهب علينا نسمات الهجرة ونتنسم عبير المهاجرين؛ نتمنى أن ينال كل منَّا شرف هذه الهجرة وثوابها، ونأسَى على فواتها علينا، وقليل منّا من يتذكر أن الفرصة متاحة أمامه لينال هذا الشرف ويكون في عداد

المهاجرين إلى الله تعالى بنفسه وقلبه وعقله إن لم يكن بجسمه وبدنه؛ حيث انقطاع الهجرة البدنية إلى مكة بفتحها، لكن بقاء الهجرة إلى الله بالقلب وبالعمل، وعدم انقطاعها إلى يوم القيامة يحقق لكل مهاجر مطلبه في الهجرة إلى ربه عز وجل بترك نواهيه. وإن من هاجر ببدنه دون قلبه لا يستوي مع من هاجر مخلصًا في سبيل الله، وإلا كانت هجرة (مهاجر أم قيس) كهجرة أبي بكر الصديق، وهذا لا يكون بحال، فالأول هاجر من أجل امرأة، أما أبو بكر – رضي الله عنه – فقد هاجر لله أعظم هجرة إذ جمع بين هجرة البدن بمفارقة المشركين، وهجرة القلب بترك ما نهى الله عنه. ونبينا محمد ﷺ هو سيد المهاجرين، يبشرنا جميعًا فيقول: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[1].

قيل: (خص المهاجر بالذكر تطييبًا لقلب من لم يهاجر من المسلمين لفوات ذلك بفتح مكة، فأعلمهم أن من هجر ما نهى الله عنه كان هو المهاجر الكامل، وهذه الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة. فالباطنة ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، والظاهرة الفرار بالدين من الفتن. وكأن المهاجرين خوطبوا بذلك لئلا يتَّكِلوا على مجرد التحول من دارهم حتى يمتثلوا أوامر الشرع ونواهيه، بل حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه)[2].

---

(1) (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم الحديث: 10)

(2) (فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الرقاق، المهاجر الكامل).

الهجرة هجرتان

لذا يقول ابن القيم – يرحمه الله – : الهجرة هجرتان: هجرة بالجسم من بلد إلى بلد. والهجرة إلى الله ورسوله؛ فهذه هي الهجرة الحقيقية، وهجرة الجسد تابعة لها وهي تتضمن (من) و(إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه سبحانه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. وهذا بعينه معنى الفرار إلى الله كما قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1]. والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه، والهجرة تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه. وأصلها: الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لا بد أن يكون ما يهاجر إليه أحب مما هاجر منه، (أي أحب إلى الله) فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر.. وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب دواعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل، وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علمًا ولا يتحرك لها إرادة[2].

(1) (سورة الذاريات، الآية: 50).

(2) (الرسالة التبوكية، زاد المهاجر إلى ربه، للإمام ابن قيم الجوزية).

الهجرة الواجبة

وقد بيَّن النبي ﷺ هذه الهجرة ورغَّب فيها، وبيَّن أنها هي الهجرة الحقيقية التي هي الدافع الأساس للهجرة البدنية إذا اضطر المسلم لأن ينتقل ببدنه حال الفتنة، وهي هجرة لا تخلو منها حياتنا اليومية بما يستجد فيها من أحداث وتحديات، وفتن ومغريات. وقد جاء ذكر ذلك بصيغ متعددة وكلها تصب في معين واحد وهو هجرة كل ما يغضب الله عز وجل. ومن ذلك قول النبي ﷺ: «المهاجر من هجر السيئات..»[1]. وقوله: «وأفضل المهاجرين من هجر ما نهى الله تعالى عنه، وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل»[2]. وقوله: «والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[3]. وسأله سائل قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال: الهجرة. قال: فما الهجرة؟ قال: تهجر السوء»[4]. وفي رواية النسائي: «فأي الهجرة أفضل؟ قال: من هجر ما حرم الله عز وجل»[5]. ومن هنا قال العزُّ بن عبدالسلام:

---

(1) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 198).

(2) (رواه الطبراني، وصححه السيوطي، وصححه الألباني في صحيح الجامع).

(3) (صحيح ابن ماجه، رقم الحديث: 3193، وصححه الألباني).

(4) (مسند أحمد بن حنبل، مُسْنَدُ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ، مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ، حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ، رقم الحديث: 16691، وأخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة).

(5) (سنن النسائي، كتاب الزكاة، إيمان لا شك فيه، رقم الحديث: 2526، وصححه الألباني).

(الْهِجرة هجرتان: هجرة الأوطان، وهجرة الإثْم والعدوان، وأفضلهما هجرة الإثم والعدوان؛ لِما فيها من إرضاء الرحمن، وإرغام الشيطان)[1].

الهجرة إلى العبودية الخالصة لله

وأعظم الهجرات وأهمها الهجرة إلى عبودية الله الخالصة، والعبودية اسم جامع لمراتب أربع تبنَى عليها، كما ذكر الإمام ابن القيم في مدارجه، وهي التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح. فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله به سبحانه عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله. وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له والقيام بذكره، وتبليغ أمره. وعمل القلب كالمحبة له والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة. وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك[2].

---

(1) (موسوعة نضرة النعيم، ج8، ص440).

(2) (انظر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم، ج1، ص120).

من الغفلة إلى اليقظة والانتباه

ومن الهجرة الواجبة علينا؛ هجر غفلة القلب إلى يقظته وانتباهه، وسماعه وتفكره، وقد أشار الله إلى إعراض القلب وغفلته وانشغاله، فقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ..﴾[1]. أي ساهية معرضة عن ذكر الله، متشاغلة عن التأمل والتفهم[2].

ولا تتحقق تلك الهجرة إلا بالذكر وحضور القلب عند سماعه وتدبر القرآن والنظر في ملكوت الله تعالى والإكثار من ذكر الموت.. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3] فقلبه حاضر فيما يسمع، وكَنَّى بالقلب عن العقل لأنه موضعه. وقيل: لمن كان له حياة ونفس مميزة، فعبَّر عن النفس الحيّة بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها. وفي التنزيل: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[4]، وقال يحيى بن معاذ: القلب قلبان؛ قلب محتشٍ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمرٌ من الأمور الآخرة لم يدرِ ما يصنع، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمرٌ من أمور

(1) (سورة الأنبياء، الآية: 1 – 3).
(2) (تفسير القرطبي ج11، ص179).
(3) (سورة ق، الآية: 37).
(4) (سورة يس، الآية: 79).

الدنيا لم يدرِ ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة[1]. قال ابن القيم: وهذا السماع الحيّ هو سماع المقربين، أي سماع القرآن إدراكًا وفهمًا وتدبرًا وإجابة، وكل سماع مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه فهو هذا السماع. فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، ودلالة على رشد، وردًّا على ضلالة، وإرشادًا عن غي، وبصيرة من عمى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًّا على تقى، وجلاءً لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاءً ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشفَ شبهة، وإيضاحَ برهان، وتحقيقَ حق، وإبطالَ باطل[2].

هجرة ممنوعة

وإذا كانت الهجرة إلى الخير واجبة؛ فإن العكس ممنوع، أي هجر الخير إلى الشر كانْطواء القلب على النفاق بهجر الإيمان باطنًا وإن بدا في الظاهر مسلمًا، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[3]. قيل: «في قلوبهم مرض» أي بسكونهم إلى الدنيا وحبهم

(1) (انظر تفسير القرطبي ج17، ص22).
(2) (تهذيب مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية - هذَّبه عبد المنعم صالح العلي العزي).
(3) (سورة البقرة، الآية: 8 - 10).

لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها[1]. ومن هنا وجب عليهم أن تهجر قلوبُهم النفاقَ الجاثم عليها إلى الإخلاص والإيمان.

ومن الهجرات الممنوعة هجْر المسلم لأخيه المسلم، قال ﷺ: «ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[2] وقال: «من هجر أخاه سنة فهو كسَفْك دمه»[3]، كما يُمنع أن يبطن في قلبه الشر له، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: »يا بني، إن قدرتَ أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل. ثم قال لي: يا بني، وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة»[4].

فلنهاجِر إلى الله دائمًا

ألا يجدر بنا الآن أن نعيش حياتنا مع الهجرة الحقيقية التي تجب على كل مسلم ومسلمة؟ نعيشها ونحن في بيوتنا وبين أهلينا وإخواننا، فإن في واقعنا - ومع الأسف الشديد - أعمالًا غير صالحة يجب أن تُهجر، ومفاهيم مغلوطة تحتاج أن تُصحح، وقيمًا ضائعة في حاجة أن تعود.

(1) (تفسير القرطبي ج1، ص192).
(2) (صحيح البخاري، كتاب الأدب، لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه، رقم الحديث: 5726).
(3) (سنن أبي داود، كتاب الأدب، من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه، رقم الحديث: 4915، وصححه الألباني).
(4) (سنن الترمذي، كتاب العلم، من أحيا سنة من سنتي قد أميتت، رقم الحديث: 2678. ضعفه الألباني).

فهل نرقى بأنفسنا ونضنُّ بها على أن تعصي خالقها وواهبها الحياة والرزق. فمن الهجرة الواجبة هجر القلب للمنكر وإنكاره وكراهيته واجتنابه، وتغييره بالطرق المشروعة، وإصلاح النفس بالتغيير الإيجابي المثمر، وهجر حب المنكر إلى حب المعروف، وهجر حب السيئ إلى حب الحسن، وهجر اللذات المحرمة إلى المباحة. وما أشد حاجتنا جميعًا إلى هجر السيئات والسوء، والذنوب والمعاصي، وما حرم الله وما يكره، فيكون الهجر عامًّا وخاصًّا لكل ما هو سيىء، فيحصل التحول من اتباع الأهواء إلى اتباع السنة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن التبرج والسفور إلى الحشمة والحجاب، ومن قطيعة الأرحام إلى صلتها، ومن الفرقة والتنازع إلى الوحدة والائتلاف، ومن التخريب والإفساد إلى العمل والإصلاح، ومن الكذب والخيانة إلى الصدق والأمانة، ومن الأثرة والبخل إلى الإيثار والجود، ومن الغلو والتطرف إلى الوسطية والاعتدال، ومن الانتقام والتشفي إلى العفو والتسامح، ومن التواكل إلى التوكل، ومن أكل الحرام إلى أكل الحلال، ومن الإصرار على الذنب إلى التوبة والندم، ومن الاعوجاج عن الصراط إلى الاستقامة عليه، ومن التعاون على الإثم والعدوان إلى التعاون على البر والتقوى، ومن الذل إلى العزة، ومن الظلم إلى العدل، ومن الغلظة إلى اللين، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العقوق إلى البر، وبالجملة «هجر ما نهى الله عنه» إلى ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال والاعتقادات الظاهرة منها والباطنة، وهذه هي هجرتنا الحقيقية التي تصلح بها مجتمعاتنا، ونصير بها من المهاجرين المؤمنين.

(14)
نشهدُ أنه قد أدّى الأمانة

نبينا محمد ﷺ، المهاجر إلى الله، المبلغ عن رب العزة سبحانه وتعالى، حمل أمانة البلاغ الثقيلة فما وهَن وما ضعف، بل أدى الأمانة خير أداء وبلغ الرسالة أتم تبليغ، وتركنا على بيِّنة من ديننا، وواعدنا إن اتبعناه أن يلقانا على حوضه الشريف، وأن يسقينا بيده الشريفة شربة منه لا نظمأ بعدها أبدًا. لقد قدم لنا في هجرته المباركة خير قدوة وأحسن أسوة وتركنا على طريق واضح لا لبس فيه بعد أن أرسى قواعد التوحيد في نفوس أصحابه وبيّنها، وأخذ منهم العهد على حمل الرسالة من بعده ودعوة الناس إليها، اقتداء به ﷺ، فكنتُ أنا وأنت وغيرنا من المسلمين من ثمرات الوفاء بهذا العهد المبارك، إذ فتحوا البلاد وفتح الله مع فتحها القلوب فآمنت ودانت بالإسلام لرب العباد. لم يهاجر نبينا ﷺ من مكة إلا بعد أن استنفد كل جهده في نصح أهلها ودعوتهم إلى الله، لكن المشركين فيها لم يتخطوا ذلك الامتحان، امتحان الإيمان واليقين، ولم ينجحوا فيه أو يحصلوا على أدنى درجة تؤهلهم لهذا النجاح، بل رسبوا وسقطوا بكل المقاييس التي يعرفها البشر، ومع ذلك لم ييأس ﷺ منهم، بل ظل على عهده وصبره في

دعوتهم حتى خضعت له الرقاب وفتحت مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وجاءه النصر والفتح المبين.

مع النبي الحبيب ﷺ

لقد كانت رحمته ﷺ رحمة عامة، رحمة امتدت حتى وصلت إلى مخالفيه ومكذبيه، "لما كسرت رباعيَّته ﷺ، وشُجّ في جبهته فجعلت الدماء تسيل على وجهه قيل: يا رسول الله، ادع الله عليهم. فقال ﷺ: «إن الله تعالى لم يبعثني طعّانًا ولا لعّانًا، ولكن بعثني داعية ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1]. إنه يتعامل مع الناس بتواضع عظيم مع أنه أفضل الخلق، ويبين لهم أنه بشر مثلهم لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا وإن كان نبيًّا مرسلًا، وقد ضرب لهم المثل في هجرته بأخذ الأسباب مع التوكل على الله، ومنها حفظ السرّ والسرّية في ما يجب أن يظل سرًّا، وتجهيز الراحلة لسفره وهو الذي ركب البراق في رحلة الإسراء والمعراج، واتخاذ الدليل وهو – فداه نفسي – خير دليل، وقد مكث بالغار مختبئًا عن عيون المشركين وهو نبي يوحى إليه من ربه مجاب الدعوة لو أقسم على الله تعالى لأبره، ولو دعاه لاستجاب له. بذل النبي ﷺ في سبيل الله وضحى بكل غال، لقد ترك موطنه مكة الذي يحبه ونشأ فيه، تركه طاعة لله، تركه على حبه، يعلن

---

(1) (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، بَابٌ في حب النبي ﷺ، رقم الحديث: 1372. ضعفه الألباني).

ذلك فيقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليّ، والله لولا أني أخرجت منك ما خرجت»[1]. وقال: «ما أطيبَك مِن بلد وأحَبَّك إليَّ ولولا أنَّ قومي أخرَجوني منكِ ما سكَنْتُ غيرك»[2].

فحبُّ الله يعلو كل حب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[3]. وهو لم يخرج من بين ظهراني المشركين غضبًا لنفسه بل امتثالًا لأمر ربه، وإلا لما لبث فيهم ثلاث عشرة سنة مع الأذي والتنكيل والتعذيب صابرًا محتسبًا داعيًا إلى الله. وقد تتلمذ على يديه أبطالُ وفدائيو الهجرة، أبو بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب، وأسماء بنت أبي بكر، وعبد الله بن أبي بكر، رضي الله عنهم جميعًا وجزاهم عنا خيرًا، وقد أحبوا النبي ﷺ حبًّا فاقَ حب النفس والمال والولد.

سيد المهاجرين إلى الله

لم يهاجر ﷺ من أجل دنيا ينالها أو رزق يحصل عليه أو عمل يطلبه، ولو شاء لفعل، لكنه هاجر لله، وفي سبيل الله، لقد خُيِّر فاختار الآخرة، وفي مسند الإمام أحمد: «جلس جبريل إلى النبي فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة،

---

(1) (سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلي، رقم الحديث: 3108، وصححه الألباني).

(2) (سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل مكة، رقم الحديث:3926، وصححه الألباني).

(3) (سورة البقرة، الآية: 165).

فلما نزل قال: يا محمد! أرسلني إليك ربك؛ أملكًا جعلك، أم عبدًا رسولًا؟ قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد! فقال رسول الله: بل عبدًا رسولًا»[1].

هاجر الحبيب ﷺ، لتحيا بهجرته خير الأمم، وتنشأ بها دولة الإسلام في المدينة، ويفتح الله معها قلوبًا غلفًا، في مكة وفي غيرها، فإذا بالوفود تتوافد عليه وفدًا تلو الآخر، ويدخل الناس في دين الله، ويتم الله تعالى هذا الأمر كما أخبر نبيه ﷺ «والله ليتمنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[2]. ويتحقق وعد الله، فيبدل خوف أصحابه أمنًا، أخرج الحاكم عن أبيّ بن كعب – رضي الله عنه – قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؛ فنزلت: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[3].

نصره الله على أعدائه وقد حاولوا قتله، فأنجاه من شرهم وأظفره عليهم ومكّن له

---

(1) (صحيح الترغيب، رقم الحديث: 3280، وصححه الألباني).

(2) (صحيح البخاري، كتاب المناقب، يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، رقم الحديث: 3416).

(3) (سورة النور، الآية: 55).

ولمن معه في الأرض مصداقًا لوعده: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[1]. قال السدي: لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قومًا من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا، قال فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها، وهكذا نصر الله نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم منّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرّت عينه ببلده وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكمالها ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عز وجل ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا، وفتحوا البلاد والرساتيق - المواضع التي فيها زرع وقرى أو بيوت مجتمعة - والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام

---

(1) (سورة غافر، الآية: 51).

الساعة، ولهذا قال تعالى «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» أي يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل[1].

فالله القوي يدافع عن أوليائه وينصرهم، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى: من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالحرب»[2].

ما لي وللدنيا

عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه. قلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء؟ فقال: ما لي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها"[3]. وكان "يبيت الليالي المتتابعة طاويًا، وأهله لا يجدون عشاء، وكان عامة خبزهم خبز الشعير"[4].

(1) (تفسير ابن كثير ج7، ص150).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الرقاق، إن حقًّا على الله أن لا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه، رقم الحديث: 6137).

(3) (سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال..، رقم الحديث: 2303، قال الترمذي: حسن صحيح).

(4) (مسند أحمد – ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس، يبيت الليالي المتتابعة طاويًا، رقم الحديث: 2303، حسنه الألباني).

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة، من طعام بر ثلاث ليال تباعًا، حتى قبض»[1]. وقالت: «لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين»[2]. وقالت: «ما كان يبقى على مائدة رسول الله ﷺ من خبز الشعير قليل ولا كثير» وفي رواية: «ما رفعت مائدة رسول الله ﷺ وعليها فضلة من طعام قط»[3]. و «إن فاطمة – رضي الله عنها – ناولت رسول الله ﷺ كسرة من خبز شعير، فقال لها: «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام»[4]. وأخرج مسلم عن سماك قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: «ألستم في طعام وشراب ما شئتم؟ لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل – أردأ التمر – ما يملأ به بطنه»[5]. وعن أبي طلحة – رضي الله عنه – قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين»[6]. وقد «نام رسول الله ﷺ

(1) (صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، ما أكل النبي ﷺ على خوان، رقم الحديث: 5100).
(2) (صحيح مسلم، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال...، رقم الحديث: 2974).
(3) (المعجم الأوسط للطبراني، بَابُ الْأَلِفِ، مَن اسْمُهُ أَحْمَدُ، رقم الحديث: 910).
(4) (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، هذا أول طعام أكله أبوك من ثلاثة أيام، رقم الحديث: 12811).
(5) (صحيح مسلم، ما شبع نبي الله ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعًا، رقم الحديث: 2977).
(6) (سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، ما جاء بك يا أبا بكر...، رقم الحديث: 2374، ضعفه الألباني).

على حصير فأثر في جنبه، فقالت له عائشة – رضي الله تعالى عنها –: يا رسول الله هذا كسرى وقيصر في ملك عظيم وأنت رسول الله لا شيء لك؟ تنام على حصير وتلبس الثوب الرديء؟ فقال لها رسول الله ﷺ: يا عائشة! لو شئت أن تسير معي الجبال ذهبًا لسارت، ولقد أتاني جبريل بمفاتيح خزائن الدنيا فلم أردها، ارفعي الحصير، فرفعته فإذا تحت كل زاوية منها قضيب من ذهب ما يحمله الرجل، فقال: انظري إليها يا عائشة، إن الدنيا لا تعدل عند الله من الخير قدر جناح بعوضة، ثم غارت القضبان»[1].

وقد صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، فلا إله إلا الله له الفضل والمنة، وجزى نبيه خير الجزاء فقد وفّى وأدّى وصبر صبرًا جميلًا، فكان النصر من الله، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[2]. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها وقيض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره، وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ[3].

(1) (أبو نعيم، حلية الأولياء).

(2) (سورة الأنفال، الآية: 26).

(3) (انظر تفسير ابن كثير ج4، ص37).

فلله الحمد والفضل ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]، منّ علينا بالهداية.. ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[2].

ونشهد أن نبينا وحبيبنا ﷺ قد أدى الأمانة ووفى، وقال لنا: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[3]، وترك لنا خير ميراث وقال: «تركتُ فيكم أيُّها الناس، ما إنِ اعتصمتم به، فلن تضلُّوا أبدًا: كتاب الله، وسُنَّة نبيِّه»[4].

---

(1) (سورة آل عمران، الآية: 164).

(2) (سورة الحجرات، الآية: 17).

(3) (سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، قد تركتكم على البيضاء، رقم الحديث: 24، وصححه الألباني).

(4) (الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب العلم، خطبته ﷺ في حجة الوداع، ج1، رقم الحديث: 324)

(15)
"وإن موعدكم الحوض"

بعد أن ملأ الأرض نورًا وإشراقًا، وبعد أن أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، مات.. مات سيد الخلق، وسيد العُبّاد، وسيد المهاجرين إلى الله.. مات حبيبنا محمد ﷺ، وكان موته أعظم مصيبة تصاب بها الأمة وترزأ، ولا زالت، لكن عزاءنا قول الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1]. وتسليتنا في مصابه هي انتظار اللقاء على حوضه، والتأهب للشرب من يده الكريمة ﷺ.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: "شهدته يوم دخل المدينة فما رأيت يومًا قط، كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وشهدته يوم موته، فما كان أقبح، ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم"[2].

مات الحبيب.. لكنه حيّ في قلوبنا، ورسالته وسنته تنير حياتنا، والموعد الحوض، واللقاء الأبدي السرمدي معه في جنات النعيم، لمن

(1) (سورة الرحمن، الآية: 27).
(2) (سنن الدارمي، بَاب فِي وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم، رقم الحديث: 88).

آمن به واتبع هديه، وسار على نهجه، ونصر دينه، ونشر سنته. نتذكره دائمًا فنرسل إليه سلامنا وصلاتنا عليه، فتبلغه حيث كنا، فيسلم علينا كما قال: "إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام"[1]. وقال:"ما من أحد يسلم عليّ، إلا ردّ الله عليّ روحي، حتى أردّ عليه السلام"[2].

وقد نقل لنا الصحابة رضوان الله عليهم تلك اللحظات الصعبة التي تُجري الدموع من مآقيها، لحظات وداع النبي ﷺ لهم قبل موته، إنها لحظات يشتاق فيها المؤمن للقاء نبيه ووداعه وسماع وصاياه، وما أصعب وداع الأحبة، وما أقسى ساعة الفراق. نتخيل أنفسنا ونحن في هذا الجمع من الصحابة، والنبي ﷺ ينظر إلينا ويعهد إلينا ويوصي بنا ويوصينا، ويعدنا اللقاء على حوضه ما تمسكنا بهديه ووفينا بعهده.. يا لها من لحظات يود المسلم فيها لو يفتديه بروحه ونفسه وماله حتى يسلم لنا ويظل معنا، لكن الله تعالى هو الذي خلق الموت والحياة، وهو الذي يحيي ويميت، وهو القادر وعلى كل شيء قدير.

ولقد خُيِّر النبي ﷺ فاختار لقاء ربه.. اختار بعد أن أدى أمانته وبذل جهده وبلغ رسالته. اختار بعد أن رأى ثمرة جهاده ودعوته، وقد دخل الناس في دين الله أفواجًا، وليس اختيار العاجزين الذين يريدون أن يتخلصوا

(1) (سنن النسائي، كتاب السهو، إن لله ملائكة سياحين في الأرض... ، رقم الحديث: 1281، صححه الألباني)

(2) (سنن أبي داود، كتاب المناسك، ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي، رقم الحديث: 2041، وحسنه الألباني).

بالموت مما يصيبهم من بلاء، ويزعمون أن في موتهم الخلاص. اختار لأن قلبه معلق بالله ولا مكان للدنيا فيه، فقد عاش من أجل رسالة أتمها وأداها أحسن أداء، وها هو في طريقه لحسن الجزاء من ربه الكريم عز وجل.

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: "إن عبدًا خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده". فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخيّر، وكان أبو بكر هو أعلمنا به"[1].

ونزل نعيه عليه من عند ربه قرآنًا، فتنزلت الآيات تبين أنه قد تم بلاغه وكمل دينه وختمت الرسالات برسالته، وقد آن له أن يستريح في جوار ربه عز وجل بعد عناء السنين وشدة الحياة وشظف العيش. فليسبح بحمد ربه شكرًا، وليستغفره طمعًا في زيادة المنزلة والرفعة وعلو المكانة والدرجة.. قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[2]

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾

(1) (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة، رقم الحديث: 3691).

(2) (سورة النصر).

قال رسول الله ﷺ "نعيت إليّ نفسي كأني مقبوض في تلك السنة"، وقال قتادة: والله ما عاش بعد ذلك إلا قليلًا، سنتين، ثم توفي ﷺ[1].وقال أبو هريرة رضي الله عنه: اجتهد النبي ﷺ بعد نزولها، حتى تورمت قدماه. ونحل جسمه، وقلَّ تبسمه، وكثر بكاؤه. وقال عكرمة: لم يكن النبي ﷺ قط أشد اجتهادًا في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها[2].

إلى الرفيق الأعلى

وها هو الحبيب ﷺ يلبي نداء ربه، ويرحب به.. يروي لنا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وينقل لنا هذه اللحظات العصيبة فيقول: "نعي إلينا حبيبنا ونبينا بأبي هو ونفسي له الفداء قبل موته بست، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمّنا عائشة، فنظر إلينا فدمعت عيناه، ثم قال: مرحبًا بكم، وحياكم الله، وحفظكم الله، آواكم الله، ونصركم الله، رفعكم الله، هداكم الله، رزقكم الله، وفقكم الله، سلمكم الله، قبلكم الله، أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم وأستخلفه عليكم، إني لكم نذير مبين، أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإن الله قال لي ولكم ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3]

---

(1) (انظر تفسير الطبري ج24، ص667)

(2) (تفسير القرطبي ج20، ص200).

(3) (سورة القصص، الآية: 83)

وقال ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾[1] ثم قال: قد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى. أحسبه قال: فقلنا: يا رسول الله، فمن يغسّلك إذن؟ قال: رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى. قلنا: ففيم نكفنك؟ قال: في ثيابي هذه إن شئتم أو في حلة يمنية أو في بياض مصر. قال فقلنا: فمن يصلي عليك منا؟ فبكينا وبكى وقال: مهلًا، غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرًا، إذا غسلتموني ووضعتموني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري فاخرجوا عني ساعة، فإن أول مَن يصلي عليّ خليلي وجليسي جبريل ﷺ، ثم ميكائيل ﷺ ثم إسرافيل ﷺ ثم ملك الموت ﷺ مع جنوده، ثم الملائكة صلى الله عليهم بأجمعها، ثم ادخلوا عليّ فوجًا فوجًا فصلوا عليّ وسلموا تسليمًا، ولا تؤذوني بباكية. أحسبه قال ولا صارخة ولا رانة، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي ثم أنتم بعد، وأقرئوا أنفسكم مني السلام، ومن غاب من إخواني فأبلغوه مني السلام، ومن دخل معكم في دينكم بعدي فإني أشهدكم أني أقرأ السلام أحسبه، قال عليَّ وعلَى كل من تابعني على ديني من يومي إلى يوم القيامة. قلنا: يا رسول الله، فمن يدخلك قبرك منا؟ قال: رجال أهل بيتي مع ملائكة كثيرة يرونكم من حيث لا ترونهم"[2].

وتروي أمنا عائشة رضي الله عنها: أغمي على رسول الله ﷺ ورأسه

(1) (سورة الزمر، الآية: 60).

(2) (البحر الزخار بمسند البزار، من حديث ابن مسعود،مُرَّة الهمدانِيٌّ عنعبد الله بن مسعودرقم الحديث: 1810).

في حجري، فجعلت أمسحه، وأدعو له بالشفاء، فلما أفاق، قال ﷺ:"لا، بل أسأل الله الرفيق الأعلى، مع جبريل، وميكائيل، وإسرافيل"[1].

طوبى لكل المؤمنين

نشهد الله عز وجل أننا رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، ونسأل الله أن نكون ممن أهل هذه البشارة، فعن أبي سعيد الخدري أن رجلًا قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك. قال النبي ﷺ: "طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني"[2].

لقد ودّ الحبيب ﷺ أن يرانا، وقال لأصحابه: "وددتُ أني قد رأيتُ إخواننا. قالوا: يا رسول الله، ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي. وإخواني الذين لم يأتوا بعد، وأنا فرطهم على الحوض"[3]. قالوا: يا رسول الله، كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك؟ قال: أرأيت لو كان لرجل خيل، غرّ محجلة[4]، في خيل بُهم دهم[5]، ألا يعرف خيله. قالوا: بلى.

(1) (صحيح ابن حبان، كِتَابُ التَّارِيخِ، بَابُ: مَرَضِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم، رقم الحديث: 6741).

(2) (مسند أحمد، باقي مسند المكثرين، طوبى لمن رآني وآمن بي ...، رقم الحديث: 11276، وصححه الألباني).

(3) (وأنا فرِطهم: أي أنا أتقدمهم على الحوض أهيئ لهم ما يحتاجون إليه).

(4) (خيل غُرّ: بضم فتشديد جمع الأغر وهو الأبيض الوجه،والمحجل من الدواب التي قوائمها بيض).

(5) (خيل بُهم دهم:أي سُود لم يخلط لونها لون آخر).

قال: فإنهم يأتون يوم القيامة، غرلًا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض"[1]. وبشرنا حبيبنا وقال: "أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة.. والذي نفس محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة"[2].

الوداع الصعب.. ووصايا الحب

ودَّع النبي ﷺ أصحابه وأمته بعد أن بيّن لهم ما يتقون، إنه يريد صلاح هذه الأمة وينتظر الاجتماع بأفرادها في جنات الخلود، يوصيها وصايا المحب المشفق: "إن مما أخاف عليكم بعدي، ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها... وإن هذا المال خضر حلو، ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل، وإنه من يأخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة"[3]، "فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم"[4]. ويدعو إلى الاتباع ويحذر من البدعة فيقول: "ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال. أناديهم: ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سحقًا سحقًا"[5]. وروى عقبة بن عامر رضي الله عنه: صلى رسول

(1) (سنن النسائي، كتاب الطهارة، السلام عليكم دار قوم مؤمنين..، رقم الحديث: 150، وصححه الألباني).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الرقاق، تحشرون حفاة عراة غرلًا، رقم الحديث: 6163).

(3) (صحيح مسلم، كتاب الزكاة، أخوف ما أخاف عليكم..، رقم الحديث: 1052).

(4) (صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا، رقم الحديث: 6061).

(5) (صحيح مسلم، كتاب الطهارة، إن حوضي لأبعد من أيلة من عدن، رقم الحدبث: 249).

الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثماني سنين، كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع إلى المنبر فقال: "إني بين أيديكم فرط، وإني عليكم لشهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا وتنافسوها". قال: فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ[1]. وفي صحيح مسلم: "إني فرطكم على الحوض. وإن عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة. إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، وتقتتلوا، فتهلكوا، كما هلك من كان قبلكم"[2].

هل نحن حقًّا نحب رسول الله ﷺ؟

سؤال يدعو للتعجب، ويستنكره مَن يسمعه، ويلومني عليه من يُسأله، فكلنا يحبه، إذ أن حب الله تعالى يستوجب حب نبيه ﷺ، ولِمَ لا نحبه؟ ألم يتحمل الأذى من أجل أن نهتدي، ألم يهجر وطنه ويهاجر ليحقق التمكين لنا في الأرض، ألم يجاهد بكل ما يستطيع ليبلغنا عن ربه أتم التبليغ. لكن الحقيقة أن الحب ليس بالادّعاء، وإنما علامة الحب أن يتأسى الحبيب بحبيبه في أخلاقه وأفعاله، وأن يسير على طريقه ويتلمس آثاره، وأن يفعل ما يحب، وقد ضرب لنا الحبيب- ﷺ- القدوة الحسنة في سلوكه وأقواله

(1) (صحيح البخاري، كتاب المغازي، هذا جبريل آخذ برأس فرسه، رقم الحديث: 3816).

(2) (صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفضائل، إني فرطكم على الحوض، رقم الحديث: 2296)

وأفعاله ومعاملاته؛ لنتخذ منها الأسوة في حياتنا، وكانت حياته كتابًا مفتوحًا لنا جميعًا، وما أمرنا بأمر إلا لنطيع وما نهانا إلا لننتهي، وما قال إلا لنسمع وما نسمع إلا لنعمل ونبلغ وندعو وننشر، وهو القائل: "بلغوا عني ولو آية"[1]. "رُبّ مبلغ أوعى من سامع"[2]. فحب الله يستلزم أن تحب نبيه حتى تكون مؤمنًا حقًّا كما قال ﷺ: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما..."[3]. وكما قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"[4].

وقد روي أن المسلمين قالوا: يا رسول الله، والله إنا لنحب ربنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5].. قال ابن كثير في تفسيره: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادّعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في

(1) (صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها، رقم الحديث: 2374).

(2) (سنن الترمذي، كتاب العلم، نضر الله امرأ سمع منا...، رقم الحديث: 2657، حسن صحيح).

(3) (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم الحديث: 16).

(4) (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده، رقم الحديث: 15).

(5) (سورة آل عمران، الآية: 31).

نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال "من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد" ولهذا قال "إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِب إنما الشأن أن تحَب. وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"(1).

وقال سهل بن عبد الله: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة؛ وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبي وحب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه، وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزاد والبلغة(2).

(1) انظر تفسير ابن كثير ج2، ص32.
(2) تفسير القرطبي ج4، ص58.

الفَصْلُ الثَّانِي

تأملات في هجرة النبي ﷺ



(1)
بشائر النصر..
تحملها ذكرى الهجرة

في هذه الأيام الطيبة تهلّ علينا نسائم الهجرة النبوية المباركة تحمل معها أريج النصر لدين الله سبحانه، وتعيد ذكرى قيام هذا الدين الخالد، وميلاد تلك الأمة العظيمة خير أمة أخرجت للناس، نراها مع تتبع مراحل الدعوة النبوية وهي تنمو وتترعرع كالصبي الصغير، الذي يحبو حينًا ويتعثر آخر حتى استوى على عوده، وما زاده تعثُّرُه إلا قوة في بنيته، وخبرة بما يعترض ساحته، وعزمًا وتصميمًا على الوصول إلى غايته، فنهض واشتد فقام.

وقد بدأت هذه الأمة المباركة بنبي الله ﷺ وحده ومن حوله قلة من المؤمنين الصادقين المخلصين، فكانوا بحقٍّ خيرَ نواة لأعظم أمة وخيرَ دليلٍ على الله عز وجل وخير من دعا لهذا الدين. ومع تجدد ذكرى الهجرة ومجيئها كل عام يتجدد الأمل في قلوب المسلمين في شتى بقاع الأرض إذ يجمعهم النسب لهذه الأمة التي كتب الله لها الخلود والبقاء؛ لأنها حاملة الدين الخاتم ووعاء الرسالة العامة، وتستبشر مع حلول الذكرى تلك النفوس المكلومة والمجروحة من جسد أمتنا الواحد، وتشتاق إلى نصر

الله المؤزر، ذلك النصر الذي يعيد لها ما غمّ عنها من سالف ماضيها المشرق، إنها متلهفة لرؤيته موقنة بمجيئه وتحققه ولو بعد حين، لذا فهي تبغي من ربها نصرًا عامًّا بكل معانيه، إنها تتطلع للنصر على أعدائها من كل جنس ولون بعد أن اغتصبت أراضيها وانتهكت فيها الحرمات، بعد أن سالت في طرقها الدماء واستبيحت الأعراض، بعد أن سُرق العدل وغُيّبَ الميزان فانتشر الظلم وانتهبت الخيرات! نصرًا على المؤامرات التي تحاك ضدها، نصرًا على التحديات والمعوقات والحدود والحواجز، نصرًا على الفرقة والاختلاف والتناحر والخصام، على النفوس والأهواء والبغضاء والشحناء، على الفقر والجوع والجهل والأمراض، على الأثرة والأنانية وحب الذات. إنها تطلب نصرًا على اللذات المحرمة والشهوات المثبطة، نصرًا على الشيطان الرجيم وجنده وأتباعه من شياطين الإنس والجن؛ فهي تبغي من ربها ذلك النصر العظيم الذي يعيد الأمور إلى نصابها ويرجع إليها مكانتها وعزتها المستمدة من دين ربها، ويفسد على أعدائها مخططاتهم الخبيثة للإيقاع بها في فخاخهم المبثوثة هنا وهناك. فهل تنهض أمتنا من كبوتها لتصبح أشد وأقوى، وتصير أصحّ وأعلى؟

« لا تحزن إن الله معنا ».

يقول تعالى مذكّرًا نبينا محمدًا ﷺ بذكرى الهجرة وما سبقها من أذى وتمحيص وما لحقها من نصر وتأييد.. ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[1].

(1) (سورة الأنفال، الآية: 30).

أي واذكر يا محمد ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك بدار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ ﴾ يوثقوك ويحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ كلهم قتلة رجل واحد ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ من مكة ﴿ويمكرون﴾ بك ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ أعلمهم به[1].

الرحلة من البداية

ومع الهجرة نعيش الرحلة من البداية وكأننا نعاصرها، فلقد مرت الرسالة المحمدية والدعوة الإسلامية بمراحل حالكة ومواطن بالغة الصعوبة، إذ أوذي صاحب الرسالة وهو أفضل الخليقة وخير البشر وأحبهم إلى الخالق العظيم، وافتُرِيَ عليه ظلمًا وبهتانًا فقيل ساحر وشاعر ومجنون - فداه نفسي وأبي وأمي - ﷺ، وحيكت ضده المؤامرات وعقدت من أجل القضاء عليه المؤتمرات، وما دار الندوة عن تدبيرهم ببعيد، لكنه صبر فأيّده الله ونصره، وحسبك أن تقرأ قوله تعالى لتعرف ما نال نبيك في سبيل تبليغ دين الله لي ولك ولكل البشر حتى تصبح فردًا من أفراده تحمل همّه على عاتقك وتسعى لتطبيقه ونشره مهما كلفك، ولك في هذا الرسول العظيم الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة إذ كان له خير حامل، حتى أنه اضطر إلى الهجرة فرارًا بدعوته تلك، وبحثًا عن أرض خصبة تصلح

---

(1) (انظر تفسير الجلالين، سورة الأنفال، الآية: 30).

لزرعه ونمائه، وكان له بفضل الله ما أراد. قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. قال ابن كثير: أي عام الهجرة لما همّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربًا، صحبه صديقه وصاحبه أبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه.

وبهذا أخرِج النبي ﷺ رغمًا عنه، أُخرِج من أحب البقاع إليه تاركًا خلفه مراتع صباه وذكريات شبابه، ومخلفًا وراءه أهله وذويه وأحبابه، لكن ذلك كله لم يفتّ في عضده بل زاده البلاء من الله قربًا وطهرًا، وأكسبه التمحيص قوة إيمانٍ وصبرًا.

ألا إن نصر الله قريب

وحين يرى النبي ﷺ من بعض أصحابه وهنًا وضعفًا، تتنزل عليه الآيات من الله تترى، تحمل معها دلائل البشرى لمن صبر مع حصول الفتنة وصدق بعد حلول البلوى، فيقول تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2]. وتبين الآيات أن ذلك الابتلاء وإن اختلفت أشكاله وتنوعت

(1) (سورة التوبة، الآية: 40).

(2) (سورة العنكبوت، الآية: 1 – 3).

أسبابه إلا أنه باب للنصر وسبيل للرضا ورصيد من الأجر، وطريق للجنة، وقد قال رسول الله ﷺ لنا: «حُفت الجنة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات»[1].

فالابتلاء علامة الإيمان ودلالة عليه، والله تعالى يقول لافتًا الأنظار لذلك: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[2]. أي: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة» قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال «ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء» وهي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب، «وزلزلوا» خوفوا من الأعداء زلزالًا شديدًا، وامتحنوا امتحانًا عظيمًا كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت – رضي الله عنه – قال: قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال: «والله ليُتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون»[3].

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب الجنة، رقم الحديث: 2823).

(2) (سورة البقرة، الآية: 214).

(3) (تفسير ابن كثير ج1، ص571)

الداعية الأعظم.. والنبي القدوة

وهذه سنة الله في خلقه، إنها سنة الابتلاء والتمحيص، سنة البأساء والضراء، إذ يتردد الناس عامة وأهل الإسلام خاصة بين ساعات من الصحة والعافية، ومن القوة والضعف، والوهن والشدة، لكن الأسوة الحسنة لنا– معشر المسلمين – جميعًا رسول الله ﷺ وقد مرت عليه هو أيضًا في دعوته تلك الحال. كما أن طريق الدعوة شاقٌّ وطويل يستغرق عمر الإنسان كله ولا ينتهي، ولا بد من سلوكه كما سلكه الداعية الأعظم رسول الله ﷺ. فكم في الهجرة من دروس وعبر أكثر من أن تحصى، نرى فيها بريق الأمل، ويتسلل من ثناياها بصيص النور تطل معه بوادر النصر وإشراقاته.

ها هو التاريخ يعيد نفسه

فلئن أخرج بعضنا من دياره بالاحتلال والاضطهاد وغيرهما من أسباب الخروج، فقد أخرج رسول الله ﷺ وصحبه الكرام، ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[1] عن ابن عباس رضي الله عنه: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمدًا وأصحابه «إلا أن يقولوا ربنا الله» أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحَّدوا الله وعبدوه لا شريك له[2].

(1) (سورة الحج، الآية: 40).
(2) (تفسير ابن كثير ج5، ص434).

إنهم أخرجوا وأوذوا «فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا» فكان الفتح المبين وعادوا إلى ديارهم فاتحين منتصرين.

ولئن كان جزاء إخوتنا الذين يطالبون بأرضهم وبيوتهم ووطنهم الحبس في سجون المحتلين الغاشمين، ولئن أودع البعض وحبس في غياهب السجون بعيدًا عن أوطانهم وألقوا وغيبوا فيها دون محاكمة أو تحقيق بحجة مكافحة الإرهاب، وهم من يمارَس معهم الإرهاب بعينه بكل صوره القبيحة متمثلًا في التفنن في تعذيبهم وانتزاع الاعترافات والكلمات منهم تحت وطأته وتلفيق الاتهامات الظالمة لهم بلا دليل أو بينة، وحرق بيوتهم، ثم تركهم كسقط المتاع في ظلمة السجن التي اختلطت بظلمات الظلم وقسوة السجان كما نرى ونسمع في وسائل الإعلام، وما تطالعنا به من صور وما خفي فهو أعظم، فلئن حدث ذلك لهم؛ فقد سجن إخوانهم من المسلمين الأوائل بأيدي المشركين بل وبأيدي أهليهم وذويهم من غير المؤمنين، وحرموا الطعام والشراب ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[1]. فصبروا وثبتوا ففك الله أسرهم وجعل العاقبة لهم.

ولئن مرت الأمة وأبناؤها بمزيد من الأذى ممن يمكرون بها ويسيئون لنبيها الكريم ويلومون نسبها العظيم (الإسلام) ويحاولون تشويه صورته النقية، وطمس معالمه والهوية، فقد وجد هؤلاء في كل عصر ووقت، بل

---

(1) (سورة البروج، الآية: 8).

ووجد من ادّعى النبوة بعد ختامها، وتلك سنة الله إلى قيام الساعة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. فالصبر الصبر، والثبات الثبات، والجد الجد، والعمل العمل، ليتحقق النصر كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

وإذا ما ادْلهمت بك الخطوب وكثرت من حولك المحن، وإذا ما اشتد أمامك الكرب وضاقت عليك السبل فأبشر بالفرج.. كما قال ﷺ: «.... وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»[3].

(1) (سورة البقرة، الآية: 251).

(2) (سورة الحج، الآية: 40).

(3) (مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس.. احفظ الله يحفظك، رقم الحديث: 2800، صححه الألباني، واللفظ لأحمد).

(2)
الهجرة من الكفر إلى الإيمان

حين أشرقت أنوار الرسالة المحمدية على مكة ومن حولها، وغمرَ سنَاها الآفاق والأرجاء، استضاءت بها الأفئدةُ واستنارت بها العقول، فهاجرت هي الأخرى إلى ربها من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، ومن الظلمات إلى النور، ومن ظلم النفس إلى الإنصاف معها، هاجرت لتنشر فيما بعد ذلك النور العظيم والخير الفياض على العالم أجمع.

وإن الناظر والمتدبر في الهجرة النبوية يراها شملت هِجْراتٍ متعددة لا هجرة واحدة، ويرى فيها من العبر والفوائد الكثير، إذ ليست سيرة نبينا محمد ﷺ كغيرها من السير، وليست كتابًا يقرأ فحسب، وإنما هي منهج حياة وطريق عمل وأسلوب دعوة، وأسوة وقدوة، لذا كان لزامًا علينا دائمًا أن نتفكر ونتمعن في دروسها نستلهم منها العبر ونعلمها الأجيال، وقد قال تعالى لنا: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

(1) (سورة الأحزاب، الآية: 21).

الهجرة ضربان.. ظاهرة وباطنة

قال العلقمي: والهجرة ضربان ظاهرة وباطنة، فالباطنة ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، والظاهرة الفرار بالدين من الفتن[1].

وقد كانت هجرة النبي ﷺ وهجرة أصحابه خير دليل على ذلك، إذ أنه – عليه الصلاة والسلام – نأى بهم عن الكفر فهجروه حتى لم يعد له مكان في قلوبهم بعد أن طهرها الله بالإسلام ومنّ عليهم بالهداية، وفي هذا يذكرهم الله تعالى ويمتنّ عليهم فيقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾[2]. وهؤلاء المهاجرون خرجوا فرارًا بدينهم، لا لدنيا أو زخرف، أو نعيم ومتاع، وإنما حيث الأمن والأمان في أداء شعائر دينهم وعباداتهم، ويتضح ذلك في الهجرة الأولى إلى الحبشة عند النجاشي الذي لا يظلم عنده أحد، إذ هاجروا بعيدًا عن صَلفِ أهل مكة من المشركين آنذاك والذين كانوا يسومونهم سوء العذاب حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم، وقد خرج من أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسود، في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضي الله عنهم

(1) (عون المعبود شرح سنن أبي داود، كتاب الجهاد، والهجرة ضربان).

(2) (سورة الحجرات، الآية: 8).

وأرضاهم. خرجوا تاركين وراءهم كل شيء من أجل أعظم ما يملكون.. الدين الحق.. وفي هذا يقول الشيخ البوطي معللًا تلك الهجرة: ذلك أن الدين إذا فُقِد أو غُلب عليه لم يغن من ورائه الوطن والمال والأرض، بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضًا من ورائه، أما إذا قوي شأنه وقامت في المجتمع دعائمه ورسخت في الأفئدة عقيدته؛ فإن كل ما قد ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود، يعود أقوى من ذي قبل؛ حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة[1].

وللنساء أيضًا في الهجرة نصيب

كان للنساء في هجرة الحبشة نصيب، كما كان لهن أيضًا في الهجرة إلى المدينة المنورة نصيب، وذكر القرآن الكريم ذلك؛ فقد قالت أم سلمة رضي الله عنها: يا رسول الله لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء. فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾[2] وقالت الأنصار هي أول ظعينة قدمت علينا. قال ابن كثير في قوله تعالى ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾:

---

(1) (فقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي)

(2) (سورة آل عمران، الآية: 195).

أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران(1).

سلامة الدين كانت في الهجرة

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(2). لما أذن رسول الله ﷺ لأصحابه في الهجرة من مكة إلى المدينة تتابعوا إليها مهاجرين، إنما فعلوا ذلك ابتغاء مرضاة الله عز وجل إذ تركوا متاع الدنيا الزائل ليسلم لهم الدين.

قال الدكتور البوطي: حتى لم يبقَ بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي، ومعذب محبوس أو مريض أو ضعيف عن الخروج، وكانت فتنة المسلمين من أصحاب النبي ﷺ في مكة فتنة الإيذاء والتعذيب وما يرونه من المشركين من ألوان الهزء والسخرية، فلما أذن لهم الرسول ﷺ بالهجرة أصبحت فتنتهم في ترك وطنهم وأموالهم ودورهم وأمتعتهم. ثم إنه يستنبط من مشروعية هذه الهجرة حكمان:

1 - وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، روى القرطبي عن ابن العربي : «أن هذه الهجرة كانت فرضًا في أيام النبي ﷺ، وهي باقية مفروضة إلى يوم القيامة. والتي انقطعت بالفتح،

(1) (تفسير ابن كثير ج2، ص190).

(2) (سورة البقرة، الآية: 218).

إنما هي القصد إلى النبي ﷺ، فإن بقي في دار الحرب عصى». ومثل دار الحرب في ذلك كل مكان لا يتسنى للمسلم فيه إقامة الشعائر الإسلامية من صلاة وصيام وجماعة وأذان، وغير ذلك من أحكامه الظاهرة.

2 - وجوب نصرة المسلمين بعضهم لبعض، مهما اختلفت ديارهم وبلادهم ما دام ذلك ممكنًا[1].

من الكفر إلى الإيمان

لقد تحول الناس في ثلاث وعشرين سنة فحسب هي عمر الرسالة المحمدية منذ بعثة رسول الله ﷺ إلى وفاته؛ تحولًا كبيرًا شمل جوانب كثيرة في مناحي حياتهم بدءًا بالاستجابة للدين الجديد، ونبذ ما كان عليه الآباء والأجداد من شرك ووثنية فالحق أحق أن يتبع، ونهاية بالهجرة والتضحية بالمال والانتشار في البلاد للدعوة والتبشير بالدين الحق، لكن أهمها على الإطلاق تحولهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، ومن تردد الشك إلى ثبات اليقين، وقد كان فيه ميلاد أمة، وتأسيس دولة، وقواعد بناء، وليس ذلك بالأمر السهل أو الهين، فلو نظرنا إلى أي مجتمع يبغي التغيير أو حتى التجديد والإصلاح في مواد بنائه من حيث أفراده وبنيته وقوانينه وقوميته، ومن حيث تغيير الأفكار وتصحيح المفاهيم وتحديد القيم التي يراد فرضها

(1) (انظر فقه السيرة النبوية للبوطي).

على أفراده؛ لاستغرق ذلك زمنًا طويلًا دون أن يصل إلى بعض ما وصل إليه رسول الله ﷺ مع أصحابه وأتباعه من بناة أمة الإسلام، وذلك هو الفرق بين ما يقام ويُبنى على أسس وقواعد من عند الله وبين ما هو من عند البشر بفهمهم القاصر ونظرتهم الناقصة، ولقد كان قائد مسيرة المسلمين تلك معلمهم ومرشدهم العظيم ﷺ، فدعاهم إلى الإيمان بالله وما تخلى عنه طرفة عين، وحثهم على الصبر على الأذى وهو أصبرهم، وأمرهم بالهجرة في سبيله وهاجر هو أيضًا، وندبهم للدعوة إليه وهو الداعية الأول.

ابحث عن أسباب الهداية، واسلك سبيلها

ألا وإن لنا في ذلك لعبرة وقدوة، ودافعًا قويًّا يدفعنا لسلوك طريقهم مع رحلتهم تلك، وتحولهم من الدعة إلى العمل، ومن الركون إلى الدنيا إلى طلب الآخرة، ومن حب النفس إلى حب الله ورسوله، مع الثبات على ذلك الطريق وعدم التزحزح عنه طرفة عين، ولا يتسنى لعاقل - فضلًا عن مسلم - أن يمر عليه حدث الهجرة ذاك دون شحذ الهمم وتزوّد الفؤاد، ليخرج بالدرس النافع والدواء الناجع، إن ذلك يتطلب مني ومنك البحث عن أسباب الهداية وسلوك سبيلها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[1].

(1) (سورة محمد، الآية: 17).

الطريق إلى الإيمان والثبات عليه

- الدعاء وطلب الهداية.. فعن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: «يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم»[1] وفي دعاء القنوت في الوتر كما علمنا رسول الله ﷺ: «اللهم اهدنا فيمن هديت»[2].

- طلب الثبات من الله تعالى.. عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» ثم قرأ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[3]

- المحافظة على نعمة الإسلام.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[4]. أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه؛ فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك[5].

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم الحديث: 2577).

(2) (صحيح ابن حبان، رقم الحديث: 722).

(3) (سورة آل عمران، الآية: 8 - تفسير الطبري ج6، ص213)

(4) (سورة آل عمران، الآية: 102)

(5) (تفسير ابن كثير ج2، ص87).

- العلم والعمل به.. قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[1]. وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به «فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك» فأمر بالعمل بعد العلم[2].

- الحذر والبعد عن أصحاب السوء.. فلا يزالون مع المرء حتى يهلكوه؛ فقد دخل أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية على أبي طالب حينما حضرته الوفاة، وقالا له: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب[3].

- الوالدان والأسرة.. وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[4] وقد تربى عليّ وزيد في بيت النبي ﷺ، فانظر إلى آثار التربية النبوية على منهج الله، وما من ناجح في حياته أو عظيم في قومه إلا ولتربية الأسرة أثرٌ واضح في سلوكه وعمله.

- الأمن والحرية.. وهذان العنصران مهمان في الدعوة إلى الإيمان والثبات عليه وعدم الإكراه على ما لا يعتقده الإنسان من الباطل،

(1) (سورة محمد، الآية: 19).
(2) (تفسير الكشاف للزمخشري، ج5، ص524).
(3) (البداية والنهاية لابن كثير ج3).
(4) (صحيح البخاري، كتاب الجنائز، الله أعلم بما كانوا عاملين، رقم الحديث: 1319).

وقد (كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي؛ فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر رضي الله عنهم وأرضاهم)[1].

وكذلك شدد المشركون العذاب على عمار بن ياسر، وقالوا: لا نتركك حتى تسب محمدًا أو تقول في اللات والعزى خيرًا. فوافقهم على ذلك مُكرهًا، وكان صهيب بن سنان يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول، وعذب بلال وخباب وزنيرة وغيرهم كثير، لذا فإن أي مكان لا يسمح فيه بقول الحق والدعوة إليه واعتناقه وأي مجتمع تحارب فيه حرية اختيار العقيدة؛ لا يرتجى خيره، ولا ينتظر من أهله ثباتًا على حق أو دعوة إليه إلا من رحم الله، ومن هنا كانت شرعتنا أن (لا إكراه في الدين)، وكان لأهل الكتاب في أعناق الدولة الإسلامية عهد وذمة لا تخفر.

- البيئة والمجتمع.. فكلما كانت البيئة مسلمة ملتزمة بشرع الله عز وجل فهي معينة على الثبات على الدين، وكل مكان لا يستطيع المسلم فيه إقامة شعائره لا يتسنى له المكث فيه. لذلك فقد اشترط العلماء لمن يقيم ببلاد الغرب شروطًا للإقامة فيها حفاظًا على دينهم وإسلامهم، منها:

---

(1) (تفسير ابن كثير ج2، ص45).

- أمن المقيم على دينه بحيث يكون عنده من العلم والإيمان وقوة العزيمة ما يطمئنه على الثبات عليه.

- أن يتمكن من إظهار دينه بحيث يقوم بشعائر الإسلام بدون ممانع، فإن كان لا يتمكن من ذلك لم تجزْ الإقامة لوجوب الهجرة حينئذ[1].

(1) (من مجموع فتاوى ورسائل العثيمين، بتصرف يسير).

(3)
الهجرة من المعصية إلى الطاعة

كانت الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السليم - خير مثال وأعظم دليل على حسن الامتثال لأمر الله عز وجل، وحبه وطاعته، وحسن التوكل عليه، فها هو أبو بكر - رضي الله عنه - يقول: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1] وها هم أصحابه - رضوان الله عليهم - قد فروا إلى الله بهجرتهم إليه، وهجروا موطن البلاء حيث الأذى والتنكيل والتعذيب، والفتنة في الدين، فهجروا الشرك ومحل الوثنية آنذاك حيث ثلاثمائة وستون صنمًا ووثنًا يصطفون حول الكعبة المشرفة، لكنهم خرجوا من مكة وهي أحب البقاع إلى الله، إلى هناك في يثرب حيث المدينة المنورة ليذوقوا طعم الحرية التي حوربوا من أجلها وعذبوا كثيرًا في سبيل نيلها، حرية الإيمان والعقيدة والدين التي حاول المشركون أن يسلخوهم منها جميعًا. هاجروا ليذوقوا طعم الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب فتنطق به الجوارح وتلهج به الألسنة. نعم فهم قد خرجوا منها

(1) (سبق تخريجه).

ليعودوا إليها! وها هي بشائر النصر قد هلت عليهم فإذا هم إليها عائدون فاتحون يحملون بين جوانحهم قلوبًا قد صقلها الإيمان وروتها الصحبة وزكاها العمل الصالح، قد نفضوا عن أنفسهم غبار المعاصي وشرورها وأدرانها، عادوا إليها ولكن بأرواح مشرقة عاشت في رحاب الله عز وجل بعد أن اغتسلت في بحار التوبة، وركنت واستكانت إلى طاعته، قد صاروا بفضل الله أتقياء أنقياء يرتعون في رياض الطاعات، التي يفيض نورها عليهم وعلى الناس من حولهم. وها هي النفوس المؤمنة تضيف إلى هجرتها السابقة هجرة أخرى جديدة باقية إلى يوم القيامة لا يفوت أجرها وثوابها على كل مؤمن، فهم لا يزالون مهاجرين رغم الفتح المبين.. إنها الهجرة من ذل المعصية إلى عز الطاعة.

هل أنت مهاجر إلى الله عز وجل؟

قد تظن أن الفرصة فاتتك لتكون مهاجرًا إلى الله عز وجل، لكن بإمكان أي مسلم منّا أن ينال شرف الهجرة وأن يكون من المهاجرين، فنبينا محمد سيد المهاجرين ﷺ يبشرنا؛ فيقول: "إن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[1] فالمهاجر من هجر الخطايا والذنوب كما قال رسول الله – ﷺ – في حجة الوداع: « ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم

(1) (سبق تخريجه).

الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[1] وقد ضرب لنا هو وأصحابه - رضي الله عنهم - القدوة الحسنة في ترك الذنوب والخطايا والسمو بالروح فوق الشهوات النفسية والحظوظ الدنيوية التي تهوي بها إلى أسفل سافلين، فقد هجروا ما يكره الله تعالى من اللذات المحرمة وإن كان فيها رضا لبعض النفوس المنحرفة عن جادة الصواب الأمارة بالسوء، ونضرب لذلك مثالًا واحدًا يبين مدى مسارعتهم إلى طاعة الله ورسوله بما لا يدع مجالًا للشك بأنهم مهاجرون هجرة بعد هجرة، ومجاهدون جهادًا إثر جهاد، وذلك حين نزل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[2]. فعن أبي النعمان قال كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة فنزل تحريم الخمر فأمر مناديًا فنادى فقال أبو طلحة اخرج فانظر ما هذا الصوت. قال فخرجت فقلت هذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرمت فقال لي اذهب فأهرقها قال فجرت في سكك المدينة»[3]. وقالوا: انتهينا يا رب! قولاً مقترنًا بالعمل،

(1) (أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث: 4862).

(2) (سورة المائدة، الآية: 90 - 91).

(3) (صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة المائدة - باب ليس على الذين آمنوا...، رقم الحديث: 4344).

إذ لا تغني الأقوال عن الفعال، وهذا خطاب لجميع المؤمنين بترك هذه الأشياء؛ إذا كانت شهوات وعادات تلبسوا بها وغلبت على النفوس، وليكن لهم في هؤلاء الأبرار مثال حين تركوا شرب الخمر وانتهوا عنها امتثالًا لله وحبًّا وطاعة وهم من قد نشأوا مغمورين في بحارها، وغضوا أبصارهم عن محارم الله وحفظوا فروجهم وحصنوها بالزواج بعد أن كان الزنى له بيوت وأسواق في جاهليتهم، وانسلخوا من المعاملات المحرمة من الربا وأكل أموال الناس بالباطل، وأكل مال اليتيم ظلمًا وقد كان ذلك جزءًا من اقتصاد المجتمع الذي كانوا أفرادًا فيه آنذاك، لكن حب الله ورسوله ملك عليهم كل ذرة في كيانهم وتحول بهم إلى هجر المعاصي والخطايا والذنوب بعد أن هجروا الكفر والشرك وعبادة الأوثان إلى غير رجعة، وكل ذلك يحتاج لتوفيق الله عز وجل وعونه على الصبر عن محارمه.

من أفضل الطاعات الصبر عن محارم الله عز وجل

عن النبي - ﷺ - قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله»[1].

وطاعة الله ورسوله تحتاج إلى صبر ومجاهدة. قال ابن حجر: ويدخل في هذا الصبر المواظبةُ على فعل الواجبات والكف عن المحرمات، وذلك

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب الإمارة، نزل يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، رقم الحديث: 3417).

ينشأ عن علم العبد بقبحها، وأن الله حرمها صيانة لعبده عن الرذائل، فيحمل ذلك العاقل على تركها ولو لم يرد على فعلها وعيد، ومنها الحياء منه والخوف منه أن يوقع وعيده فيتركها لسوء عاقبتها وأن العبد منه بمرأى ومسمع، فيبعثه ذلك على الكف عما نهي عنه، ومنها مراعاة النعم فإن المعصية غالبًا تكون سببًا لزوال النعمة، ومنها محبة الله، فإن المحب يصير نفسه على مراد من يحب[1].

احذر المعاصي.. وتجنب آثارها

إذا كان المهاجر هو من هجر الذنوب والخطايا وهو الذي يهجر ما نهى الله عنه ذلك؛ لأن لتلك المعاصي آثارًا كثيرة تؤثر على العبد وعلى قلبه وروحه وجسده، والكيس الفطن من حذرها واجتنب الطرق الموصلة إليها، وقد اقتطفت لك بعضًا من هذه الآثار باختصار، مما ذكره الإمام ابن قيم الجوزية[2]:

- فمن آثار المعاصي: وحشة يجدها العاصي بينه وبين الله تعالى لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلًا.
- ومنها: وحشة بين العاصي وبين الناس ولا سيما أهل الخير منهم. قال بعض السلف: إني لأعصي الله فأجد ذلك في خلق دابتي وامرأتي.

---

(1) (فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني).

(2) (الداء والدواء، لابن قيم الجوزية).

- ومنها: ظلمة يجدها العاصي في قلبه؛ لأن الطاعة نور والمعصية ظلمة. قال ابن عباس رضي الله عنه: إن للحسنة نورًا في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق.
- ومنها: حرمان الطاعة؛ حيث يصرف العاصي وقته في المعصية فيفوته الطاعة.
- ومنها: حرمان العلم؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.
- ومنها: حرمان الرزق: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب الذي يصيبه»[1].
- ومنها: تعسير الأمور، فلا يتوجه لأمره إلا يجده مغلقًا دونه أو متعسرًا عليه.
- ومنها: أنها تمحق بركة العمر، فكما يزيد البر في العمر، فإن المعصية تقصره وتذهب ببركته.
- ومنها: أنها أن العبد يألف المعاصي ويتعود عليها وتضعف عنده إرادة الخير، فتأتي السيئة بأخوات لها، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

---

(1) (صحيح ابن حبان، رقم الحديث: 872).

- ومنها: هوان العبد على ربه، كما قال الحسن البصري:هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[1].
- ومنها:أنها تورث الذل لأن العز كل العز في طاعة الله تعالى، وكان من دعاء السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك.
- ومنها أنها تفسد العقل وتطبع على قلب صاحبها حتى يعمى.
- ومنها أنها تدخل العبد تحت لعنة الله ورسوله ﷺ، فإنه لعن كلّ عاصٍ كما لعن من سب أباه وأمه، وكما لعن النامصة والمتنمصة، ولعن آكل الربا وموكله، وغير ذلك مما ذكر في الأحاديث.
- ومنها حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، والملائكة تدعو لهم فتقول: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[2].
- ومنها أنها تزيل النعم. كما قال علي رضي الله عنه: ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة.
- ومنها أنها مجلبة للذم وتسقط الكرامة وتذهب بالحياء وتجعل العاصي في سجن الشيطان.

---

(1) (سورة الحج، الآية: 18).
(2) (سورة غافر، الآية: 7).

- ومنها أنها تحدث الفساد في الأرض وتسبب الخسف والزلازل وتلقي الرعب والخوف في القلوب، وتجرئ على الإنسان أعداءه.

التوبة.. التوبة

كما علينا ألا ننسى أن المعصية كانت سببًا لخروج أبينا آدم عليه السلام وزوجه من الجنة، وأنها سبب الشقاء في الدنيا والآخرة، فلنحذر الوقوع فيها وإذا ما ضعفنا وارتكبناها فلنعد إلى الله ولنتب إليه ليغفرها لنا ويعفو عنا ويؤمننا من عقابه، فقد قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع لا يغيرون إلا عمهم الله بعقاب»[1].

(1) (سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، رقم الحديث: 4009، وصححه الألباني).

(4)
الهجرة من الجهل إلى العلم

كانت بعثة النبي ﷺ رحمة للعالمين، وكانت هجرته فتحًا مبينًا ونصرًا مؤزرًا على ضلالات الجهل والتخبط في دروبه والتيه في ظلماته، إذ تمكن المؤمنون من خلال تواجدهم في دولة الإسلام الناشئة من التفرغ لطلب العلم، وتلقيهم عن النبي ﷺ مشافهة، فالحال يساعد على ذلك في ظل البعد عن فتنة الإيذاء بمكة وما تبعها من استضعاف، لذا فقد تلقى الصحابة – رضي الله عنهم – من المهاجرين والأنصار كل كلمة من معلمهم العظيم بدقة وعناية، فتعلموا منه القرآن الكريم وهو يتنزل بينهم غضًّا طريًّا، وكان لهم نبينا ﷺ خير معلم، ولمَ لا وقد قال تعالى ممتنًّا على عباده: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ**﴾[1]. فجاء نبي الأمة الأمّية ليرفع عنها الأمّية وليحرر العقول من الخرافات والضلالات والجهل الصادّ عن سبيل الله عز وجل، وسما بها عن كل ما يهين آدميتها المكرمة فحرم الكهانة والسحر والعرافة والشعوذة، ونهى عن قراءة الكف والفنجان، وأبطل التنجيم وعبادة الأوثان، ودعا إلى نبذ

(1) (سورة آل عمران، الآية: 146).

كل ما من شأنه التدني بالعقل البشري ليسمو به في آفاق علوم جديدة نافعة على مستوى الفرد والبشرية جمعاء، جاء المعلم الأعظم ﷺ يعلمها لتخرج من أميتها بهذا العلم، وكان أول ما نزل آيات تدل على طريقه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[1] فأخذوا عنه العلم بجد، وانطلقوا به بثبات وحب، ليبلغوه غيرهم ويزيلوا به آثار الجهل من النفوس، ويبطلوا بيقينه وساوس شياطين العقول، ويهزموا بقوته شطحات الأهواء، انطلقوا سمعًا وطاعة لرسول الله ﷺ حين قال: «بلغوا عني ولو آية»[2].

أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم

لما عرف الصحابة - رضي الله عنهم - من رسول الله ﷺ أهمية العلم، وسمعوا منه عن قيمته وفضله، سارعوا لتعلمه فكانوا حملة للدين ووعاء للعلم، تراهم وهم يتناوبون على تلقيه من فم النبي الكريم ﷺ فتجد بعضهم يعمل في صنعته والآخر يسمع عنه، ويتناوبون على ذلك ثم يبلغ الحاضر منهم الغائب حتى لا تفوتهم منه كلمة، فحفظوا أقواله ﷺ وعلموا أحواله، الخاصة والعامة، وتلك خصيصة لا يشاركه فيها أحد، إذ لم يترك أصحابه - رضي الله عنهم - مما قال أو فعل شيئًا إلا وتسابقوا إليه حفظًا وفهمًا وعملًا، وتبليغًا للناس بصدق وأمانة وتقوى وورع، وتلك هي الرسالة التي بعث من أجلها خير البشر عليه الصلاة والسلام.

---

(1) (سورة العلق، الآيات: 1 - 5).

(2) (سبق تخريجه).

واستمر المسلمون في تلقي العلم، وكان أساس علمهم تعلم كتاب الله عز وجل إذ هو الطريق إلى باقي العلوم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا أردتم العلم فانثروا القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين»[1]. ويبين لنا عمر - رضي الله عنه - المنهج في تعلمه؛ فيقول: «تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبي ﷺ خمسًا خمسًا»[2] وكانوا إذا صلوا الغداة قعدوا حِلقًا يقرأون القرآن ويتعلمون الفرائض والسنن، ويذكرون الله تعالى كما يقول أنس رضي الله عنه[3]. وأثِر عنهم كلمات صادقات تدعو إلى هجر الجهل والفرار من ظلمته، فقد روى أبو نعيم في الحلية قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق... ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك، وأن تباهي الناس بعبادة ربك[4].

(1) (موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للشيخ محمد جمال الدين القاسمي).
(2) (رواه البيهقي في شعب الإيمان).
(3) (جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي).
(4) (حلية الأولياء لأبي نعيم، رقم الحديث: 239).

الناس تجاه العلم ثلاثة أنواع

عن أبي موسى – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منه طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادبَ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[1]. (ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع، وكذلك الناس. فالنوع الأول من الأرض ينتفع بالمطر فيحيى بعد أن كان ميتًا، وينبت الكلأ، فتنتفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس، يبلغه الهدى والعلم فيحفظه فيحيا قلبه، ويعمل به، ويعلمه غيره، فينتفع وينفع. والنوع الثاني من الأرض ما لا تقبل الانتفاع في نفسها، لكن فيها فائدة، وهي إمساك الماء لغيرها، فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس، لهم قلوب حافظة، لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به، فهم يحفظونه حتى يأتي طالب

(1) (صحيح مسلم، كتاب الفضائل – باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم، رقم الحديث: 2282).

محتاج متعطش لما عندهم من العلم، أهل للنفع والانتفاع، فيأخذه منهم، فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم. والنوع الثالث من الأرض السباخ التي لا تنبت ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء، ولا تمسكه لينتفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس، ليست لهم قلوب حافظة، ولا أفهام واعية، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به، ولا يحفظونه لنفع غيرهم)[1].

العلم فريضة

قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر»[2].

وقوله (طلب العلم فريضة) قيل فيه: هو العلم الذي لا يسع البالغ العاقل جهله، وقال ابن المبارك: إنما هو أن يقع الرجل في شيء من أمور دينه فيسأل عنه حتى يعلمه. وقال البيضاوي: المراد من العلم ما لا مندوحة للعبد منه كمعرفة الصانع والعلم بوحدانيته ونبوة رسوله ﷺ وكيفية الصلاة، فإن تعلمه فرض عين. وقال الثوري: هو الذي لا يعذر العبد في الجهل به. وقيل هو طلب علم الحلال حيث كان أكل الحلال فريضة، وقيل: هو علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول في شيء من ذلك يجب عليه طلب علمه. وقيل: هو علم الفرائض الخمس التي بني

(1) (انظر صحيح مسلم بشرح النووي).

(2) (صحيح الجامع، رقم الحديث: 3914، وصححه الألباني).

عليها الإسلام. وقيل: هو طلب علم التوحيد بالنظر والاستدلال والنقل. وقيل:هو طلب علم الباطن وهو ما يزداد به العبد يقينًا، وهو الذي يكتسب بصحبة الصالحين والزهاد والمقربين فهم ورثة علم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين(1).

ومن هذه الأقوال يتبين أن هذا العلم المذكور في الحديث الشريف إنما هو فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وبه تزكو النفوس ويعرف العبد ربه فيعبده عبادة صحيحة. وهذا العلم مسئولية الجميع في تعلمه وتعليمه كبيرة، بداية بالأسرة فالمدرسة والمسجد والشارع والمجتمع، وهو يحتاج لطرق صحيحة في تدريسه وتعليمه منذ الصغر وفق مناهج ميسرة وأساليب متطورة تناسب كل الأعمار والمستويات، وتواكب التقدم العلمي الذي أظهر إعجاز القرآن والسنة النبوية المطهرة، لذلك لا بد وأن تنقح مناهجنا الدراسية مما يشوبها، ويعاد النظر إليها لتصاغ من جديد على أسس متينة تثبت الإيمان في القلوب، وأن يُعطَى المتعلمون في مدارسهم وقتًا مناسبًا لما يحتاجونه من هذا العلم العيني نظرًا لأهميته إذ يرتكز عليه الإيمان بما يبني العقول ويهذب النفوس ويحيي القلوب.

(1) (انظر حاشية السندي على ابن ماجه، كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ص98).

أمتنا مأمورة بالقراءة وطلب العلوم المختلفة

لقد علم المسلمون على مر العصور فضيلة العلم؛ فبدءوا بما هو فرض عين عليهم ثم أتبعوا ذلك بسائر علوم الدين والدنيا فظهر الفقهاء الذين عِلموا وفهموا، وفرّعوا وعلّموا، وكثر العلماء الربانيون، والدعاة المصلحون، كما تنافسوا في طلب فروض الكفاية من العلوم التي لا غنى عنها في حياتهم للتمكين في الأرض لأداء رسالتهم العظيمة، فصاروا أساتذة العالم ومعلمي البشرية في شتى العلوم ومختلف المجالات، فإذا ما نظرت إلى علوم الطب والكيمياء أو الفلك والفيزياء رأيتهم هناك! وإذا ما سألت عنهم في مجال الحساب والجبر أو الجغرافيا والجيولوجيا؛ فهم السابقون إليها! وإذا ما غصتَ في علوم البحار والطبيعة وجدتهم فيها الأوائل، حتى ترجمت كتبهم إلى لغات أخرى لينقل عنهم هذا العلم الذي كان لهم الريادة فيه. ويوم أن عرفوا أنهم الدعاة الهداة في كل شيء، وأن هذه رسالتهم للبشرية، رسالة الرحمة والنفع والهداية؛ أخذوا بأسباب ذلك فكان لهم في العلم شأن وأي شأن.

فحين نذكر العلم علينا ألا نحصره في العلوم الشرعية وإن كانت دائمًا هي الأصل. إنما نراه في كل علم نافع يفيد طالبه وينفع الناس والمجتمع من حوله، وإلا لما كان لأمة الإسلام الصدارة والفضل على سائر الأمم حين كانت هي القبلة لطلبة العلوم المختلفة يفدون على بلدانها من كل

مكان لطلب العلم، يوم أن كان الملوك والأمراء الأجانب يرسلون بعض أبنائهم إلى بلاد المسلمين لينهلوا من بحار علومنا، فيا لها من عزة وأي عزة! ذلك لما علمنا أن رسالتنا عالمية واسعة ليست محصورة في مكان بعينه ولا تحت علم معين! فكم نحن بحاجة للعودة إلى تلك المفاهيم الصحيحة.

حاجة الأمة كبيرة إلى جهود أبنائها العلماء

إن أمتنا دائمًا لفي حاجة إلى متخصصين في أمور الشريعة لحفظ ذلك الدين وتبليغه والقيام بواجب الدعوة إليه، والذي لا يسقط إلى يوم القيامة، وإلى متخصصين في العلوم الأخرى من طب وفلك وحساب وكيمياء وتاريخ وجغرافيا وهندسة، نحتاج لمن يتخصص في علوم اللغات المختلفة لنوصل لأصحابها رسالتنا، ونمد حبل التواصل بيننا وبينهم، نحتاج لخبراء في علوم العصر الحديثة من التكنولوجيا المختلفة، في الاتصالات والاختراعات وغيرها من سائر العلوم التي هي شعار لقوة الأمم ومبرر لسيادتها، ولن نكون خير الأمم إن لفَّنا الجهل وأحاطت بنا ظلماته فانتظرنا من غيرنا أن يكشفه عنا أو يعطينا مما عنده، وكيف يعطينا إذا حرمنا نحن أنفسنا؟! كما أنها بحاجة إلى معلمين ومعلمات من أصحاب الكفاءة والخبرة الذين يؤدون أعمالهم بصدق وإخلاص، موقنين أنهم أصحاب رسالة وأنهم على طريق رسول الله ﷺ وهم بدورهم يحتاجون دائمًا

لإمدادهم بالجديد المبتكر عن طريق حضور الدورات العلمية المستمر، والاطلاع الدائم على ما جدّ على الساحة العلمية، على أن يعود للمعلم دوره ومكانته التي أكرمه الله بها، فنعلي من شأن المعلم ونُجِلّه ونحترمه.

وأنت يا طالب العلم

أين أنت من كل هذا يا طالب العلم؟! إن الأمل معقود عليك بعد الله، وأمتك تنتظرك وهي بحاجة إليك.. ورسول الله ﷺ يقول لك: «من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع»[1] ويقول: «ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة»[2].

إنك بلا شك تنتمي إلى تلك الأمة العظيمة، أمة اقرأ التي أمرت بالقراءة، والتي دعاها قرآنها من فوق سبع سماوات إلى الأخذ بأسباب العلم وسلوك سبيله، وما ذاك إلا لأهمية تلك المرحلة - مرحلة التعلم والعلم - في حياة أي فرد، وفي بناء أي أمة وفي نهضة أي مجتمع، وإن المجتمعات الجاهلة ليس لها أن تسود أو ترتقي، وليس لها مكان بين الأمم. ألا تعلم أنك على ثغرة من ثغور الإسلام لا بد لك أن تسدها وتحفظها، فكم من

(1) (سنن الترمذي، كتاب العلم، من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، رقم الحديث: 2647، ضعفه الترمذي).

(2) (صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم الحديث: 2699).

نفوس انحرفت بسبب جهل أصحابها بالدين الحق، وكم من ثغور ضُيّعت وتُضيّع بسبب جهل أهلها وذويها. لذا فإن عليك أولًا أن تتعلم دينك وحينها ستعرف أن هذا الدين عظيم يطلب من أبنائه أن يتعلموا ويتخصصوا في كل علم نافع للبشرية؛ ليكونوا شامة بين الأمم ويحققوا الاكتفاء الذاتي لأنفسهم حتى لا يمدوا أيديهم إلى غيرهم استجداء، بل تمتد هي بالعطاء للعالم من حولهم، عطاء بلا حدود وفي كل شيء، عطاء روحيًّا ونفسيًّا، ماديًّا وعمليًّا، عطاء يشمل علوم الدين والدنيا معًا، فنحن لا نستغني عن أحدهما ولا نتعلم الا لأجلهما معًا، وهذا هو الفرق بيننا وبين غيرنا من الأمم حين نمسك بزمام العلم فنسوقه كما أراد الله له، نفعًا شاملًا للبشرية لا دمارًا! لذا فقد أمرنا ديننا أن نقرأ ونتعلم باسم الله وفي سبيل الله ووفق منهج الله ومن أجل وجه الله تعالى، وبهذا نستحق أن نكون الأمة الوسط التي توازن بين متطلبات الروح وحاجة الجسد، والدنيا والآخرة، والتي تعرف لكل منهما حقه فتؤتيه إياه، بلا إفراط أو تفريط، وبلا غبن أو خسارة.

(5)
الهجرة من الفرقة إلى الوحدة

إن أيّ بناء في حياة البشر لا يقوم له بنيان ولا يظهر له وجود ولا يعمّر طويلًا؛ ما لم يُبنَ على أسس صحيحة وقواعد متينة ومواد صالحة، فما ظنك إذا كان هذا البناء هو الإنسان نفسه وروحه وعقله، وما هو الحال إن كان ذلك البناء هو أمة الإسلام ذاتها متمثلًا في كل فرد من أفرادها، لا شك أن ذلك هو البناء الأكبر الذي يحتاج إلى الجهد الأعظم في بنائه لشرفه وأهميته بل وخطورته. لذا فإن رسول الله ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة بدأ على الفور في إنشاء الدولة الإسلامية وإرساء قواعدها على أسس متينة وقواعد صلبة، فكان بناء المسجد أول عمل قام به ﷺ حيث تجلت في بنائه روح الأخوة الرائدة وصور التعاون الحقة فشارك في البناء قائدهم ومرشدهم الأعلى رسول الله ﷺ، والمهاجرون والأنصار من حوله يعملون معه، وصار المسجد بمجرد بنائه أعظم صرح في ذلك الوقت لتخريج دفعات من الخريجين المؤمنين الذين نجحوا ووُفقوا في اجتياز اختبارات الرياضة الروحية بما تحقق فيهم من روح الألفة والأخوة والحب والمواساة لإخوانهم، والرياضة البدنية بحسن القيام بالتكاليف الشرعية

بكفاءة وتفوق لا مثيل له في عالم البشرية، وظهر دور المسجد في ذلك واضحًا جليًّا؛ حيث لم يقتصر على الجانب التعبدي فحسب بل صار شاملًا كل مناحي الحياة شمول الإسلام العظيم الذي يرمز له.

يقول الدكتور عماد خليل في ذلك: وسرعان ما غدا (المسجد) رمزًا لما يتسم به الإسلام من شمولية وتكامل، فقد أصبح مركزًا روحيًّا لممارسة الشعائر وأداء العبادات، ودائرة سياسية عسكرية لتوجيه علاقات الدولة في الداخل والخارج، ومدرسة علمية وتشريعية يجتمع في ساحاتها أصحاب الرسول ﷺ، وتدار في باحاتها الندوات، وتُلقى على منبرها المتواضع التعاليم والكلمات، ومؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة ويمارسون التوحد والإخاء والانضباط... لقد كان بناء المسجد هو الخلية الأولى للبناء الاجتماعي للأسرة والجماعة بوصفه صهر المؤمنين بالإسلام في وحدة فكرية واحدة من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء وإقامة المناسبات المختلفة... فلم يكن المسجد معبدًا أو مقرًّا للصلاة وحدها بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه متكاملًا في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع[1].

---

(1) (انظر دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل).

دور المسجد عظيم لا ينكره أحد

أما عن دوره في ذلك فيكفي التقاء المسلمين من رواده كل يوم للصلاة بعضهم ببعض، ولا ريب أن ذلك التلاقي يؤدي بدوره إلى الحب والأخوة في الله وخير الصحبة التي تكون سببًا في رضاه سبحانه يوم القيامة، وفي الحديث قال النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «ورجل كان قلبه معلقًا بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا»[1].

في المسجد يقف المسلم بجانب أخيه المسلم عند الصلاة فتلتصق قدمه بقدمه، ويحاذي منكبه منكبه، ويكون التزاحم والتراحم في مظهر أخوي عظيم لا تجده في مكان آخر، وليس المسجد حكرًا على أحد وإنما يحظى بالصف الأول منه السابقون إلى الخيرات المحافظون على الصلوات. كذلك يجلس المسلمون معًا لاستماع الخطب والدروس وحضور الحلقات يجمعهم هدف واحد وغاية واحدة وإن تعددت وسائل الوصول إليها. وفي المسجد كذلك يرتبط الناس بعضهم ببعض وتكون الصداقة والإخاء فيتحابون في الله حين تتعلق قلوبهم بأحب البقاع إلى الله، ولا ينكر فضل المسجد وأثره أحد. وفي هذا يقول الدكتور البوطي: إن من نظام الإسلام وآدابه شيوع آصرة الأخوة والمحبة بين المسلمين، ولكن شيوع هذه الآصرة لا يتم إلا في المسجد، فما لم يتلاقَ المسلمون يوميًّا، على مرات متعددة

(1) (سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، المتحابون في جلالي، رقم الحديث: 2391، وصححه الألباني).

في بيت من بيوت الله، وقد تساقطت مما بينهم فوارق المال والجاه والاعتبار لا يمكن لروح التآلف والتآخي أن تؤلف بينهم. وإن من نظام الإسلام وآدابه أن ينصهر أشتات المسلمين في بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبل الله الذي هو حكمه وشرعه، ولكن ما لم تقم في أنحاء المجتمع مساجد يجتمع فيها المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته ليتمسكوا بها على معرفة وعلم، فإن وحدتهم تؤول إلى شتات، وسرعان ما تفرقهم عن بعضهم الشهوات والأهواء[1].

الأخوّة بين المسلمين

وكان ذلك هو الأساس الثاني الذي قامت عليه دعائم الدولة المسلمة في مهدها فقد بدأه النبي ﷺ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أخوة مطلقة تذوب معها فوارق الجنس واللون والنسب والعشيرة، أخوة تجعل الأخ الأنصاري يتقاسم فيها مع أخيه المهاجر ما يملك! أخوّة إسلامية الرابط فيها الدين الحق لتكون بذلك أقوى من أخوّة القرابة والنسب. أخوّة توجب العون والنصح والبر والمواساة والتوارث بعد الوفاة، وظل أثر هذه الأخوّة في الميراث إلى غزوة بدر حيث نزل في أعقابها قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾[2] فرجع كل إنسان في الميراث إلى نسبه وذوي رحمه وأصبح المؤمنون كلهم إخوة بالإسلام. وقد عبَر الأنصار ذلك الاختبار الصعب اختبار الإيثار والتضحية

(1) (انظر فقه السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي).

(2) (سورة الأنفال، الآية: 75).

بالمال وبما يملكون في سبيل الله، من أجل إيواء أناس وفدوا عليهم مهاجرين ربما لم يتعرفوا عليهم ولم يلتقوا بهم أو يشاهدوهم من قبل، لكنهم بكل رضا تخلوا عن الأنانية وحب ذواتهم بطريقة لم يشهد لها في التاريخ نظيرًا على مرّ العصور، فعن أنس – رضي الله عنه – قال: (قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلًا في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله عز وجل لهم)[1] وقد نزل القرآن الكريم يشهد لهم بذلك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

أخوّة والتزامات

آخى النبي ﷺ بين المسلم وأخيه المسلم، كما أصدر وثيقة نظم فيها العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم الجديد وبين من حولهم ممن يسكن المدينة، وجاء في هذه الصحيفة ما يحوّل أفراد الدولة المسلمة من الفرقة إلى الوحدة والجماعة، ويحول بينها وبين اختلاف القلوب في ظل الالتزام بما فيها من تعاليم، بل وجاء في بنودها صفة الأمة الواحدة التي جمعها الدين الخاتم ووجوب التراحم بين أفرادها، والأخذ بكل السبل لتحقيق

(1) (سبق تخريجه).

(2) (سورة الحشر، الآية: 9).

الألفة والوحدة وحلّ ما يحدث بينهم من مشكلات أو خلافات دون تدخل أجنبي بينهم قد يسعى للوقيعة والدسيسة في صفوفهم متبعًا منهج فرق تسد!

ومما جاء فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، وأن المؤمنين لا يتركون مغرمًا (مثقلًا بالدين) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (كبيرة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم.....)[1].

إن نصوص الصحيفة توافق القرآن الكريم في المبادئ العامة من حيث اعتبار المسلمين أمة واحدة من دون الناس، ومن حيث التراحم والتعاون فيما بينهم ومن حيث الاحتفاظ برابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة، ثم من حيث مراعاة حقوق القرابة والصحبة والجوار[2].

الجماعة.. الجماعة

إن الله تعالى يدعونا جميعًا للاعتصام بحبله والاتحاد والوحدة، ويحثنا على أن نكون جميعًا على قلب رجل واحد، وينهانا عن التفرق فيقول: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[3]، و قد كان أصحاب رسول الله ﷺ

(1) (انظر دراسة في السيرة للدكتور عماد الدين خليل).
(2) (المرجع السابق).
(3) (سورة آل عمران، الآية: 103).

يتواصون بذلك، فها هو ابن عباس - رضي الله عنه - يقول لسماك الحنفي: يا حنفي، الجماعة.. الجماعة! فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها؛ أما سمعت الله عز وجل يقول: «واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا يرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم ثلاثًا، قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»[1]. فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادًا وعملًا؛ وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف[2].

دعوة إلى الحياة الطيبة السعيدة

إن الحياة بدون الوحدة والاتحاد حياة ناقصة يشوبها وينغصها مرارة الفراق والتشتت، والعيش دون إيمان يجمعنا وأخوة تربطنا وإخاء يلفنا يفقد الحياة أجمل ما فيها، والحياة السعيدة حقًّا هي تلك الحياة التي ينعم أفرادها بلذة الوحدة وترابط الجماعة، وألفة الأخوّة، ألا ترى أن سعادة المؤمنين في الجنة لا تكتمل إلا باجتماعهم مع من يحبون؟ لذا؛ فإن الله

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم الحديث: 3236).

(2) (انظر تفسير القرطبي ج4، ص155).

عز وجل يجمعهم مع أحبابهم فيها كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾[1].

إننا نريد العودة إلى معاني تلك المحبة، وحقوق هذه الأخوّة، نتمنى الوحدة والترابط على كافة المستويات، بداية من محيط الأسرة الصغيرة والذي لم يسلم هو الآخر من أثر النزاع الذي صدع بنيانه، وحلول الفرقة بين أجزائه التي ذهبت بما تبقى فيه من حب ووئام. ووصولًا إلى وحدة الشعوب المسلمة والعودة بها إلى الشعور بالانتماء، والانضمام تحت لواء الأمة الواحدة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾[2].. فإن الله عز وجل يخاطبنا في كتابه بلفظ الجمع لنعرف أننا جزء واحد وجسد واحد وبنيان متكامل يشد بعضه بعضًا.

نريد أن نعرف للجار حقه فلا نفرط فيه، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»[3] نريد أن يعرف كلّ منّا ما عليه تجاه أخيه المسلم فيقوم به خير قيام بلا منّ أو لوم أو أذى أو عتاب.. قال ﷺ: «حق المسلم على المسلم ست. قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض

(1) (سورة الطور، الآية: 21).

(2) (سورة المؤمنون، الآية: 52).

(3) (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر..، رقم الحديث: 4869).

فعده، وإذا مات فاتبعه»[1] وقال: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[2].

نريد أن نؤدي الحقوق إلى أهلها فلا نظلم أحدًا، نريد أن يعرف كل إنسان على هذه الأرض حق أخيه الإنسان فلا يظلمه أو يهضمه؛ فالكل في الإنسانية سواء. قال ﷺ: «المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم»[3]. وقال: «إن ربكم واحد وإن أباكم واحد؛ ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»[4].

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب السلام - خمس تجب للمسلم على أخيه، رقم الحديث: 2162)

(2) (صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم الحديث: 2310).

(3) (سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، رقم الحديث: 3934، وصححه).

(4) (مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، رقم الحديث: 22978، وصححه الألباني).

(6)
الهجرة من البدعة إلى السنّة

نشأ رسول الله ﷺ في قومه بمكة وقد امتلات بالأصنام حول كعبتها المشرفة، رآهم وهم يعبدونها ويسجدون لها ويتقربون إليها بالقرابين وغيرها مما فيه شرك بالله عز وجل وتردٍّ بالعقل وسفاهة في الرأي، عبدوها في تلك الأرض الطاهرة التي كانت تدين بدين إبراهيم عليه السلام، واتبعوا في ذلك أول من ابتدع تلك العبادة وأحدثها وأنشأها لهم في أرضهم؛ وهو عمرو بن لحي رئيس خزاعة، فهو أول من أدخل الأصنام إلى مكة والحجاز بعد أن رأى الناس يعبدونها في الشام، فاستحسن ذلك وظنَّه حقًّا؛ لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه من هناك بهبل وجعله في جوف الكعبة، وقد كان لعمرو منزلة بين الناس وكلمة مطاعة فاتبعوه في ذلك، وصار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم، وكانت لهم تقاليد ومراسم في عبادتها ابتدع أكثرها عمرو بن لحي، وكانوا يظنون أن ما أحدثه بدعة حسنة وليس بتغيير لدين إبراهيم عليه السلام، فإذا نظرت إليهم رأيتهم يعكفون عليها ويستغيثون بها ويحجون إليها ويتقربون لها بأنواع من القرابين، ويخصونها

بشيء من مآكلهم ومشاربهم وحرثهم وأنعامهم بل وأبنائهم، ويعتقدون أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه وتشفع لديه كما جاء في القرآن الكريم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[1]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[2].

الدعوة إلى العودة للفطرة السليمة

وحين بعث رسول الله ﷺ كانت بعثته رحمة بكل شيء.. رحمة بالنفس البشرية ليخرجها من هذه البدعة المهلكة بدعة عمرو بن لحي الذي فني وهلك وظلت بدعته فيهم تمارَس، بُعِث ﷺ ليقضي على الشر متمثلًا في الشرك والوثنية، ليعود بالناس إلى معين الفطرة والحنيفية السمحة دين إبراهيم عليه السلام، فقد ناشد تلك العقول المضلَّلَة أن تعود لفطرتها النقية، دعاهم إلى التفكر في هذه البدعة المحرقة - بدعة الوثنية - وبيّن لهم كيف أن الشيطان استغل جهلهم وبعدهم عن دين أبيهم الخليل - عليه السلام - حتى صارت البدعة في نظرهم قربة وزلفى إلى الله؛ فآمن منهم من آمن واستجاب لنداء الفطرة وكانوا قلة، وبقي الكثيرون ممن يتمسك بالقديم ولو كان فاسدًا باليًا، ويتبع الآباء ولو ضلوا سواء السبيل، ويتعصب للأجداد ولو كانوا ظالمين. قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[3].

---

(1) (سورة الزمر، الآية: 3).

(2) (سورة يونس، الآية: 18).

(3) (سورة الزخرف، الآية: 22).

وقد ذم الله سبحانه وتعالى من اتخذ التقليد سبيلًا له بغير فهم واتباع حتى لو كان تقليد الآباء والأجداد، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[2].

الرسول ﷺ سيد المتبعين لأمر الله عز وجل

وحين هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة؛ كان ذلك اتباعًا لأمر الله عز وجل، فعندما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بوحي من ربه تبارك وتعالى، فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج وحدد له وقت الهجرة قائلًا: لا تبت هذه الليلة على فراشك، الذي كنت تبيت عليه. وها هو يخبر أبا بكر - رضي الله عنه - قائلًا: «إن الله قد أذن لي في الخروج»، وها هو يتلقى أمره بالقبول والاتباع، على ما فيه من ترك الوطن وبعد عن الأهل ومشقة في السفر وخطورة الطريق، فهو يتبع أمر ربه كما ذكر القرآن الكريم: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[3]. لذا فإن كل كلمة يتفوّه بها وكل لفظة يلفظها وكل فعل يفعله أمام أصحابه من أمور التشريع إنما هو من عند الله سبحانه وتعالى الذي زكاه، فقال عنه:

(1) (سورة البقرة، الآية: 170).

(2) (سورة المائدة، الآية: 104).

(3) (سورة الأحقاف، الآية: 9).

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[1]. وهو ﷺ قدوتنا ومعلمنا في الاتباع والطاعة والامتثال لأوامر الله. وهو القائل حين وضع دستور الدولة المسلمة بعد الهجرة: «وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثًا ولا يؤويه؛ وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة»[2].

الهجرة من دار البدعة إلى دار السنة

لقد هاجر النبي ﷺ لله تعالى هجرة كاملة وهاجر معه كذلك أصحابه، هاجر أولًا بعقول هذه القلة من المؤمنين، حين استجابوا لدعوته وهجروا الجهل بالدين إلى العلم به، كما هاجر بقلوبهم حين أعلنت الكفر بالأصنام ولزمت الإيمان بالرحمن، وبقي له الآن أن يهاجر بتلك الأبدان من دار البدعة إلى دار السنة، ومن محيط بدعة عبادة الأوثان وعابديها إلى الأرض الطيبة وساكنيها؛ حيث سنة التوحيد الواجبة التي فطر الله الناس عليها امتثالًا لأمره عز وجل ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3] فإلى الدين القيم المستقيم؛ حيث التمسك بالشريعة والفطرة السليمة. «ولكن أكثر

---

(1) (سورة النجم، الآية: 3).

(2) (انظر السيرة النبوية لابن هشام، هجرة الرسول ﷺ، كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار).

(3) (سورة الروم، الآية:30).

الناس لا يعلمون». ويبين ﷺ ذلك فيقول لأصحابه: «إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني، يومي هذا: كل ما نحلته عبدًا حلال وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم. وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم. وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»[1].

البدعة

عن جابر – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ كان يقول لأصحابه في خطبته: «إن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة، بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[2].

والبدعة لغة: الشيء المخترع على غير مثال سابق، ومنه قول العزيز الحميد: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[3] أي ما كنت أول المرسلين؛ فقد أرسل قبلي رسل كثير، وجئت على فترة منهم. ويقال لمن أتى بأمر لم يسبقه إليه أحد: أبدع وابتدع. وتبدع: أي أتى ببدعة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾[4]، وبديع السماوات والأرض صفة من صفات الله تبارك وتعالى؛ لإبداعه إياها وإحداثه لها لا عن سابق مثال لقوله تعالى:

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم الحديث: 2865).

(2) (صحيح النسائي، رقم الحديث: 1577، وصححه الألباني).

(3) (سورة الأحقاف، الآية: 9).

(4) (سورة الحديد، الآية: 27).

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] . فالبدعة اسم هيئة من الابتداع، وهي كل ما أحدث على غير مثال سابق، وهي تطلق في عالم الشر والخير، وأكثر ما تستعمل عرفًا في الذم. واختلف العلماء في تحديد معنى البدعة شرعًا، فمنهم من جعلها مقابل السنة، ومنهم من جعلها عامة تشمل كل ما أحدث بعد عصر الرسول ﷺ سواء كان محمودًا أم مذمومًا، وقيل: إن البدعة هي الطريق المخترعة في الدين التي تضاهي الشريعة، يقصد بها التقرب إلى الله، ولم يقم على صحتها دليل شرعي صحيح. وقيل أيضًا: المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعًا، وإن كان بدعة لغة[2].

كل بدعة ضلالة

وقوله ﷺ: «وكل بدعة ضلالة» من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[3]، فكل من أحدث شيئًا ونسبه إلى الدين لم يكن له أصل من الدين يرجع إليه؛ فهو ضلالة والدين منه بريء، وسواء ذلك في مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة أو الباطنة.

---

(1) (سورة البقرة، الآية: 171).

(2) (انظر البدعة وأثرها السييء في الأمة، للشيخ سليم الهلالي).

(3) (صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم الحديث: 1718).

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة. وقال الإمام أحمد: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ، والاقتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة ضلالة. أما إمام دار الهجرة فيقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا خانَ الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[1] فما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا.

وكان عبد الله بن مسعود – رضي الله – عنه من أشد الصحابة إنكارًا للبدع وهجرًا للمبتدعين، فكان يقول: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم. وقد سمع رجلًا عطس، فقال: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، فقال له: ما هكذا علمنا رسول الله ﷺ بل قال: إذا عطس أحدكم فليحمد الله، ولم يقل وليصل على رسول الله[2].

هل هناك بدعة حسنة وبدعة سيئة؟

يقول الشافعي: البدعة بدعتان، بدعة محمودة وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم[3]. ويقول: «المحدثات ضربان ما أحدث يخالف كتابًا أو سنة أو أثرًا أو إجماعًا؛ فهذه بدعة الضلال، وما أحدث

(1) (سورة المائدة، الآية: 3).

(2) (انظر البدعة وأثرها السييء في الأمة: للشيخ سليم الهلالي).

(3) (رواه أبو نعيم في حلية الأولياء).

من الخير لا يخالف شيئًا من ذلك فهذه محدثة غير مذمومة»[1]. وما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر - رضي الله عنه - لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد وخرج ورآهم يصلون كذلك، فقال: نعمت البدعة هذه، إن كانت هذه بدعة فنعمت البدعة. فعمر - رضي الله عنه - قد علم أن ذلك العمل كان له أصل في الشرع فقد كان النبي ﷺ يحث على قيام رمضان ويرغِّب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرقة ووحدانًا، وهو ﷺ صلى بأصحابه في رمضان غير ليلة، ثم امتنع من ذلك معللًا بأنه خشي أن يكتب عليهم، فيعجزوا عن القيام به، وهذا قد أُمِن بعده ﷺ[2].

وقد قسَّم العلماء البدعة إلى بدعة دينية وبدعة دنيوية، فالبدعة في الدين هي: إحداث عبادة لم يشرعها الله سبحانه وتعالى. وأما الدنيوية: فما غلب فيها جانب المصلحة على جانب المفسدة فهي جائزة وإلا فهي ممنوعة، ومن أمثلة ذلك: ما أحدث من أنواع السلاح والمراكب ونحو ذلك..... وكذلك الأمور العادية الدنيوية المبتدعة كالطائرات ومكبرات الصوت ونحوها، وليس فيها محذور شرعي، فاستعمالها لا محذور فيه إذا لم يكن في ذلك ظلم لأحد ولا نصر لبدعة أو منكر، وليست داخلة في الأحاديث المحذرة من البدع[3].

---

(1) (البيهقي، المدخل إلى السنن والكبرى، باب ما يذكر من ذم الرأي، رقم الحديث: 190).

(2) (جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي بتصرف).

(3) (فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء، من الفتوى رقم 2577).

احذر أن يُرَدَّ عليك عملُك

قال ابن القيم الجوزية في كتابه مدارج السالكين: (إنما الأعمال الصالحة بالنيات الصالحة، والنية الحسنة لا تجعل الباطل حقًّا؛ لأن النية وحدها لا تكفي لتصحيح الفعل فلا بد أن ينضم إليها التقيد بالشرع).

وقد بين لنا الرسول ﷺ الميزان التي نزِن به أعمالنا ظاهرًا وباطنًا فقال: "إنما الأعمال بالنيات"[1]، فالنية ميزان للأعمال في باطنها، ولا بد أن تكون خالصة لوجه الله. وقال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[2] وهذا ميزان للأعمال في ظاهرها، فكما أن كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله؛ فليس من الدين في شيء[3].

خطورة البدعة في الدنيا والآخرة

حين وصى رسول الله ﷺ أصحابه تلك الموعظة البليغة قائلًا لهم: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن عبدًا حبشيًّا فإِنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديِّين

(1) (صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم الحديث: 1).
(2) (سبق تخريجه).
(3) (انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي).

الراشدين تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإِنَّ كل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة»[1]. كان ذلك تحذيرًا لهم من سوء عاقبة البعد عن منهج الله عز وجل، أواستحداث ما لا أصل له فيه بالابتداع ولو كان بنية حسنة أو عن غير علم، لذا فقد أكد عليهم ودعاهم إلى السنة ولزومها والعضّ عليها بالنواجذ (الأضراس) كناية عن التمسك بها حتى لا يحيد المرء عنها في زمن قادم، والاختلاف فيه كائن. ذلك لأن البدعة أثرها خطير، وهي لا تضر المبتدع فقط بل كل من يتبعه عليها، كما أنها ليست عملًا وليد لحظة وينتهي بل يموت صاحبها وهي كائنة لا زالت تردّد وتُنقل ويُعمَل بها.

من أخطار البدع وآثارها

– البدعة بريد الكفر؛ لأن المبتدع نصّب نفسه مشرعًا لله وندًّا، فاستدرك على أحكم الحاكمين، وظن أنه على ملة أهدى من ملة محمد ﷺ، وقد علمنا ما كان من عمرو بن لحي حين ابتدع عبادة الأصنام بمكة.

– البدعة تميت السنة، وقد فهم السلف الصالحون أن البدعة والسنة لا يجتمعان، فقال التابعي الجليل حسان بن عطية رحمه الله: ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع من سنتهم مثلها ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة[2].

(1) (سنن أبي داود، كتاب السنة، أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًّا، رقم الحديث: 4607، وصححه الألباني).

(2) (سنن الدارمي، باب اتباع السنة، حديث موقوف رقم: 98).

- البدعة سبب الهلاك؛ لأنها تقود إلى ترك السنة، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم[1].

- البدعة تفتح باب الخلاف على مصراعيه، وهو باب ضلالة.

وقد ذكر سليم الهلالي في كتابه (البدع وأثرها السيئ في الأمة) خطورة البدع لا سيما على صاحبها، ومن ذلك:

- أن صاحب البدعة عمله مردود، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2]. ولحديث (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[3].

- أن التوبة عنه محجوبة ما دام مصرًّا على معصيته مقيمًا على بدعته ويُخشى عليه سوء الخاتمة. قال ﷺ: «إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته»[4].

- أنه لا يرد الحوض ولا يحظى بشفاعة النبي ﷺ وقد قال محذرًا: «أنا فرطكم على الحوض، ليرفعن رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا

---

(1) (صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، وما يتخلف عن الصلاة إلا...، رقم الحديث: 654).

(2) (سورة الكهف، الآية: 103 - 104).

(3) (سبق تخريجه).

(4) (أخرجه الطبراني والترمذي).

دوني فأقول: أي رب، أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1]. وفي رواية: «إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقًا لمن بدّل بعدي».

– صاحب البدعة عليه إثم من عمل ببدعته إلى يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[2]. وقال ﷺ: «ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[3].

– صاحب كل بدعة ملعون؛ لقوله ﷺ: «من أحدث فيها أو آوى محدثًا؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل»[4].

– صاحب كل بدعة لا يزداد من الله إلا بعدًا، وقد وصف الله الخوارج فقال عنهم: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وعملكم مع عملهم ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من البرية»[5] .

---

(1) (صحيح البخاري، كتاب الفتن، أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، رقم الحديث: 6642).
(2) (سورة النحل، الآية: 25).
(3) (صحيح مسلم، كتاب الزكاة، اتقوا النار، رقم الحديث: 1017).
(4) (صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، حرم ما بين لابَّتي المدينة على لساني، رقم الحديث: 1771).
(5) (صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، يأتي في آخر الزمان قوم..، رقم الحديث: 4771).

وأنت أيها المسلم، ماذا يجب عليك تجاه البدعة؟

قد علمنا خطر البدعة وأنها شر وأيّ شر، فضررها يلاحق صاحبها في حياته فهو ليس بأمين على دين الله وهو يدعو إلى ضلالة، متبع لهواه بعد أن وقع في فخ من فخاخ الشيطان الذي اصطاده بسلاح حادّ من أسلحته الفتاكة وهو البدعة، قد يكون عن نية حسنة أو عن جهل، وقد يكون لشهرة ومصلحة مهما كانت فإثمها يلاحقه في حياته، وبعد مماته يجري عليه لأنه أثر تركه، ذلك إن لم يتب منها ويتبرأ قبل موته ويعلن توبته على الملأ، ويصحح ما ابتدعه ليقلع عن بدعته من تبعه فيها.

إن علينا جميعًا عندما نقبل على أي عمل نتقرب به إلى الله أن نعرضه على كتابه وسنة رسوله الأمين ﷺ الذي ما كتم عنا منها شيئًا، وأن نزنه بميزان الشرع ونسأل علماءنا الأجلّاء فيما التبس علينا أو خفي من أمور الدين مما في القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ لأنهم أهل الذكر، والله تعالى يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. كما يجب ألا ننقاد وراء أصحاب البدع والأهواء، وأن ندعوهم إلى السنة وننصحهم ونحذر من اتباع بدعتهم، فكم من الأعمال الكثير مما يوافق الكتاب والسنة ما يدعونا للبعد عن أي بدعة ولو كان ظاهرها الخير، وكم من أناس تعبدوا الله بغير ما شرع فما كان سعيهم مشكورًا. فتمسك بالحق والسنة وإن قلّ المتمسكون

(1) (سورة النحل، الآية: 43).

تكن من الفائزين. وقد سئل الإمام علي رضي الله عنه: (مَن أهل السنة؟ ومَن أهل البدعة؟ فقال: أما أهل السنة المتمسكون بما سنه الله لهم ورسوله وإن قلوا وإن قلوا، وأما أهل البدعة فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ورسوله، العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا)[1]. وفي الحديث: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق مالًا كسبه في غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة، وجانب أهل الذل والمعصية، طوبى لمن ذل في نفسه، وحسنت خليقته، وصلحت سريرته، وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السنة، ولم يعدها إلى البدعة»[2].

(1) (كنز العمال، للمتقي الهندي)

(2) (رواه البيهقي في شعب الإيمان).

(7)
الهجرة من الاستضعاف إلى التمكين

لقد كان في هجرة النبي ﷺ ولادة أمة، وحياة وقوة، ونصر وعزة، وظهور وتمكين، وذلة للمشركين وصَغار، وها هم أولاء ينفضون عن رؤوسهم التراب بعد أن خرج النبي ﷺ من بينهم وهو يذره على رءوسهم فلم يبق من المتآمرين رجل إلا وعلى رأسه شيء منه.. إنه تراب العار والذل والهزيمة لمن أبَى الخضوع والانقياد لله ورسوله.

إن ولادة أي مخلوق في هذا الكون ووجوده لا بد أن يمرّ بمراحل عدة يخطوها مرحلة إثر أخرى حتى يقوَى ويستوي قائمًا ويصبح له كيان خاص به، ووجود على وجه الأرض، وتلك البداية لا بدّ منها في حياة الأمم، وهي أول الطريق لا يتخطاها أحد ولا يتعداها مخلوق، فالكلّ يولد صغيرًا ثم يكبر شيئًا فشيئًا ترعاه عين الله وتحرسه عناية الرحمن التي لا تخطئ ولا تغيب. أما نظرت يومًا إلى بذرة صغيرة لا حول لها ولا قوة ألقيتْ في حقل شاسع وأرض ميتة فأنبتها الرحمن سبحانه الذي يقول للشيئ كن فيكون؛ فصارت بستانًا زاخرًا بكل ما تشتهي النفوس وتحب، بعد أن تعهدتها يدُ الإنسان بالريّ والرعاية أخذًا بالأسباب وأحاطتها بسياج من الحماية والوقاية خوفًا من الأمراض.

هكذا نشأت الأمة المحمدية أمة الإسلام العظيمة، نشأت ووُلدتْ يوم أن بذر بذرتها رسول الله ﷺ وصنع أفرادها من الرعيل الأول على يديه، وربّاهم في مدرسة النبوة الراقية على منهج فريد لا مثيل له في مناهج البشر، منهج فيه ما يقوّي الجسد ويزكي الروح، ويصل ذلك الإنسان الفقير الضعيف بواهب القوة والغِنى القويّ الوهاب. تعهدها معلمها الأعظم وأستاذها النابغة ﷺ وأخذها بالتربية على أسس ودعائم لا تبلى مع اختلاف الأزمنة؛ لأنها مستمدة من كتاب الله الخالد ومن الوحي العظيم، لكنها لم توجد هكذا فجأة بل كان لوجودها ثمن عظيم دفعه إخواننا من أصحاب رسول الله ﷺ غاليًا من أموالهم وأوقاتهم وراحتهم، بل ومن دمائهم الزكية! مع قائدهم العظيم ﷺ الذي سبقهم كلهم في ذلك.

المراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية قبل الهجرة النبوية

ولقد مرت الدعوة الإسلامية بمراحل عدة، كان فيها لكل مرحلة ما يميزها، منها ما كان في السرّ ومنها ما كان في العلن، ومنها ما كان قبل الهجرة ومنها ما كان بعدها، وكما أن لكل وقت طريقته في الدعوة وأساليبه المناسبة لأهله؛ كان لكل مرحلة منها طريقتها الخاصة بها، مضافة إلى تضحيات ومطالب قد تختلف هي الأخرى من واحدة لأخرى. بَيْدَ أن بعض هذه المراحل قد مرت بأوقات من الضعف والاستضعاف أكثر من بعضها الآخر حتى تخطت المحنة وخرجت منها بفضل الله بسلام، لكن

الذي لا يختلف فيه أحد أن الدعوة في كل أوقاتها ومراحلها تطلبتْ عظيمَ صبر وكثيرَ جهد.

المرحلة الأولى: مرحلة الدعوة السرية

واستمرت ثلاث سنوات، وكانت حصيلتها في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلًا وامرأة، دخلوا في الإسلام، عامتهم من الفقراء والأرقاء وممن لا شأن لهم في قريش. وفي بداية هذه المرحلة كان المؤمنون يلتقون برسول الله ﷺ سرًّا، وإذا أراد أحدهم ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفي عن أنظار قريش[1].

ولو تخيلتَ نفسك في تلك المرحلة لوجدتَ الأمر غاية في الصعوبة؛ إذ ليس أصعب من أن يكتم الإنسان مشاعره ويخفي عقيدته ويخبئها في صدره؛ خشية أن تُسرَق منه رغمًا عنه أو تتعرض للضياع! لذا فقد كانت مرحلة حرجة على أصحابها من المسلمين الأوائل الذين استحقوا أن يكونوا من السابقين، وممن بذروا بذرة الأمة والدعوة إليها مع رسول الله ﷺ وكفاهم ذلك شرفًا وفخرًا. ولذلك لما بدت التباشير وبدأت البذرة في الإنبات أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجهر بالدعوة لتظهر تلك البذرة على الملأ وتكبر رغمًا عنهم، وإن حاولوا أن يمنعوا عنها الماء والشمس

---

(1) (انظر فقه السيرة النبوية للبوطي).

والهواء.. قال تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[1]، فانتقلت الدعوة بذلك إلى المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة

وكانت من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر السنة العاشرة كما ورد في كتب السيرة، وفيها جهر النبي ﷺ بالدعوة إلى الله عز وجل لا يريد على ذلك أجرًا من أحد من البشر، إنما يبلغ رسالة ربه كما أمره، لكنه لاقى عنتًا كثيرًا من قومه الذين كانوا أبعد الناس عن قبولها، وقد كان الأَوْلى بأهل مكة عامة وبقريش خاصة أن يسارعوا لاحتضان دعوة النبي الصادق الأمين الذي ما جربوا عليه كذبًا قط، ولو عقلوا لعلموا أن من يصدق مع البشر لا يجرؤ على الكذب على الله، ولو أنصفوا أنفسهم لاستجابوا له وإلا وقفوا منه محايدين كما قال عتبة بن أبي ربيعة لهم ناصحًا: يا معشر قريش، أطيعوني وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم. لكنهم لم يسمعوا حتى لعتبة، وقد كان مشركًا مثلهم وكبيرًا فيهم، ويبدو أنهم استساغوا العناد واستمرءوا التكذيب وأحبُّوا الظهور بصورة المنتصر القوي، ولو كان في الحقيقة مغلوبًا لكنه الكِبْر والجحود! فكان أن اتخذت قريش أساليبَ شتى

(1) (سورة الحجر، الآية: 94).

لقمع الدعوة وإرهاب المؤمنين وتخويف غيرهم من الدخول تحت لوائها فكانت السخرية والتحقير، والاستهزاء تخذيلًا للمسلمين، وتوهينًا لقواهم المعنوية، فرموا النبي ﷺ بتهم لا تصدق عليه وشتائم هزيلة يتعلق بها المهزوم، فكانوا يتهمونه بالجنون ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾[1]، ويصفونه بالسحر والكذب، كما قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[2]، ويشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعلة هائجة.. ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَـٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٌ ﴾[3]. كما حاولوا تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات حوله وبث الدعايات الكاذبة للتضليل وإثارة البلبلة، فقالوا عن القرآن ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِىَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴾[4]، ويبدو أن تلك الاتهامات وسيلة شيطانية في كل زمان للفت الأنظار والتشويه على الحق بإحداث اللغط من حوله وبث الشكوك في النفوس الضعيفة.

كان ردّ الفعل من المشركين أمام دخول الدعوة مرحلة العلن ردًّا قاسيًا عنيفًا، إذ جُن جنون كبرائهم حتى بلغ بعَمه أبي لهب أن يقول لبني هاشم محرضًا إياهم على النبي ﷺ (خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم).

(1) (سورة الحجر، الآية: 6).

(2) (سورة ص، الآية: 4).

(3) (سورة القلم، الآية: 51).

(4) (سورة الفرقان، الآية: 5).

ولم يشبع غرور هؤلاء ويثبت وجودهم إلا محاربة تلك الدعوة واستضعاف أهلها وإن كانوا قلة، وتعذيبهم ولو أدى إلى قتلهم، وجعلهم عبرة للصدّ عن سبيلها ولو تطلّب ذلك التخلص منهم وإبادتهم، ومن هنا كان الأذى والإهانة، والتجويع والحصار والمقاطعة التامة التي استمرت ثلاث سنوات، مرّ فيها المسلمون بحالة استضعاف تامة استهدفت قلوبهم المؤمنة لتكفر، وأنفسهم العزيزة لتذلّ، وأبدانهم الصابرة لتضعف، كان الاستضعاف لهم ولأولادهم وأزواجهم، وكان الابتلاء والتمحيص الذي يأتي دائمًا بعده المخرج والفرج.

الاستضعاف

إن المتفكر في تلك الفترة العصيبة في حياة المسلمين الأوائل مع بداية الدعوة الإسلامية يرى عجبًا، فالدعوة للإسلام كانت محظورة لكنها للات والعزى ومناة وهبل مفتوحة على مصراعيها! والدعوة إلى حرية العبادة مكفولة، فلكل صنمه الخاص به وكذا لكل قبيلة، لكنها لعبادة الله وحده ونبذ الأصنام في شرعتهم غير مقبولة! ألا وإن من حضارة الشعوب أن يُترك لكل إنسان حرية اختيار عقيدته وأن لا يُكرَه أحد من أفرادها على اعتناق دين بعينه ولو كان مقيمًا على باطل، وقد جاءت بذلك دعوة الإسلام العظيم؛ إذ يقول الله تعالى في كتابه الكريم ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ فلم يحدث أن أكره المسلمون أحدًا على الدخول في الإسلام، صحيح أن الدعوة

للدخول فيه واجبة ومستمرة إلى يوم الدين لتحرير العقول والأهواء من ضلال الكفر إلى هداية الدين الحق، ومن ظلام القلوب بالشرك إلى نورها بالتوحيد، وهي المهمة الأولى للأنبياء والرسل، الذين لم يحدث أن أكرهوا أحدًا على اعتناق دعوة الحق تلك أو فرضوها على الناس، لكن قريشًا لم تكن على هذا القدر من الرقي آنذاك، إذ حاول المشركون أن يكفوا الدعوة عن الظهور والانتشار، ويمنعوا الناس من الدخول فيها، ويفتنوا المؤمنين ليرتدوا عنها، ووضعوا الخطط ودبروا المكائد ليقوموا بذلك العمل تعاونًا منهم على الإثم والعدوان، فاجتمع لذلك رؤوس القوم (وكوّنوا لجنة مكونة من خمسة وعشرين رجلًا من سادات قريش رئيسها أبو لهب عمّ النبي ﷺ، وقررت اللجنة أن لا تألو جهدًا في محاربة الإسلام وإيذاء رسوله، وتعذيب الداخلين فيه، والتعرض لهم بألوان من النكال والإيلام)[1].

صور من التعذيب والإيذاء

من العدل والإنصاف حين يختلف اثنان في قضية ما وتتضارب الأقوال وتتفاوت الأفهام؛ فإن الأوْلى بكلا الطرفين أن يبدءا في فتح باب للحوار والنقاش؛ لمحاولة الوصول إلى الحقيقة وانتزاعها من بين ثنايا الكلام بدلًا من الإصرار على الرأي ولو كان باطلًا، أو تعذيب الخصم ولو كان محقًّا، ولقد حاول رسول الله ﷺ بشتى الطرق مع المشركين حتى يسمعوا له

---

(1) (انظر الرحيق المختوم للمباركفوري).

ويتعرفوا على ما يدعو إليه فاتحًا لهم باب الحوار على مصراعيه، لكنهم أبَوْا إلا الصمم، ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾[1]. فكان من أشد صور الأذى للنبي ﷺ ذلك الأذى النفسي بالتكذيب بدعوته، والكفر بنبوته، ومبارزة الله عز وجل بالعصيان المهلك لهم، حتى أنه ﷺ يحزن حزنًا شديدًا خوفًا من بطش الله وبأسه بهم، وطمعًا في هدايتهم التي يتمناها من قلبه الرحيم، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾[2]. وبالتالي تبع هذا التكذيب الأذى البدني له ﷺ ولمن تبعه، فكان أبو لهب وهو عمه يضربه بالحجر حتى يدمي عقباه، وكذا امرأته أم جميل كانت تحمل الشوك وتضعه في طريقه ﷺ وعلى بابه ليلًا. وكان البعض يطرح عليه الأذى وهو يصلي، وغير ذلك كثير مما ذكرته كتب السيرة، لكن الله حفظه منهم وكفاه شرورهم، وقال له: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾[3]، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[4].

اضطهاد أصحاب النبي ﷺ

أما أصحابه - رضوان الله عليهم - فنالوا نصيبهم من أذى المشركين وافيًا، فعثمان بن عفان - رضي الله عنه - كان عمُّه يلفُّه في حصير من أوراق النخيل ثم

(1) (سورة فصلت، الآية: 5).
(2) (سورة الشعراء، الآية: 3).
(3) (سورة الحجر، الآية: 95).
(4) (سورة المائدة، الآية: 67).

يدخنه من تحته، ومصعب بن عمير لما علمت أمه بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشًا فتخشف جلده تخشف الحية، أما بلال بن رباح فكان أمية بن خلف يضع في عنقه حبلًا ثم يسلمه إلى الصبيان يطوفون به في جبال مكة، وتارة يشده شدًّا ثم يضربه بالعصا، أو يكرهه على الجوع والجلوس في حر الشمس في الظهيرة تارة أخرى، ثم يضع على صدره الصخرة العظيمة ويخيره بين الكفر بمحمد أو الموت، فيقول بلال أحد أحد. وكانوا يلفون بعض الصحابة في إهاب الإبل والبقر، ثم يلقونه في حر الرمضاء ويلبسون بعضًا آخر درعًا من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة. كما عذب آل ياسر بحرِّ الرمضاء ورسول الله ﷺ يمر بهم وهم على تلك الحال من العذاب والاستضعاف، فيقول لهم: "صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة"، حتى مات ياسر وسمية من شدة التعذيب، وأكره عمار على الكفر بلسانه تحت وطأته. وعذب خباب بن الأرت كذلك، وغيره كثيرون ممن ذاقوا كؤوس العذاب في سبيل إسلامهم فثبتهم الله، حتى النساء والإماء الضعيفات مثل زنيرة والنهدية وابنتها وأم عبيس اللاتي أسلمن لم يسلمن من أذى المشركين إذ كانوا يسومونهن من العذاب ما لا يطاق[1].

وهكذا دخل هؤلاء المشركون صفحة من صفحات التاريخ، لكنها قاتمة السواد مكتوبة بمداد الظلم الأسود، إذ أذاقوا المسلمين من العذاب ما لا تطيقه الجبال الرواسي، وكأن لهم مدارس خاصة يدرسون فيها أصول التعذيب وفنونه

(1) (الرحيق المختوم للمباركفوري بتصرف).

وأساليبه وطرقه، ويطورونه من حال لحال، لكن الله تعالى كان لهم بالمرصاد فأبطل كيدهم وأمد المسلمين بالقوة الروحية التي تزيد بذكره كما كان من بلال، وجعل لهم فرجًا ومخرجًا بالهجرة إليه حيث الأمن والأمان والعزة والتمكين.

المرحلة الثالثة: مرحلة الدعوة خارج مكة

وتذكر كتب السيرة أنها كانت من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة. ولم تكن تلك المرحلة بأقل مما سبقها إذ نال ﷺ فيها من الأذى أيضًا ما نال، ولكن من خارج مكة! فقد خرج في شوال سنة عشر من النبوة إلى الطائف مشيًا على قدميه ذهابًا وإيابًا، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلًا ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان - عليه الصلاة والسلام - كلما مرَّ على قبيلة في الطريق دعاها إلى الإسلام فلم تجب إليه واحدة منها. وأقام بين أهل الطائف عشرة أيام لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، لكنهم ردوه ردًّا منكرًا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يرمونه بالحجارة حتى اختضبت قدماه الشريفتان بالدماء، فرجع إلى مكة مرة ثانية ودخلها في جوار المطعم بن عدي الذي كان مشركًا.

وظل رسول الله ﷺ في مكة يدعو القبائل والأفراد خاصة في مواسم الحج حتى منّ الله تعالى على الأنصار بالإيمان به، فكانت البشارة بالعزة والمنعة والنصر والتمكين، وأمر الله تعالى نبيه بالهجرة إليهم في يثرب، فهاجر بعد أن هاجر أصحابه ممن آمنوا به، وبذلك انتقل المسلمون إلى

مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية، لكنها أحدثت في النهاية تحولًا كبيرًا لهم فانتقلوا من حال الضعف إلى القوة بعد أن صار لهم وطن يسكنونه، ودولة يقيمون بها، ومنهج يسيرون عليه، وشريعة يحتكمون إليها، وأمة ينتمون لها جميعًا بلا فوارق أو طبقات، وقد استغرق ذلك زمنًا وجهدًا وتضحية وإيثارًا منهم جميعًا، لكنهم قطفوا ثمرة جهادهم الطويل ولا زالوا يقطفونها ويصلهم أجرها وثوابها كلما صلى لله مصلٍّ، أو تعبد لله عابد، فقد كانت آخر المراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية في زمن النبي ﷺ مرحلة دخول الناس في دين الله أفواجًا بعد فتح مكة.

قال ابن إسحق[1]:

(لما افتتح رسول الله - صلى الله عليه - مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، إذ كانوا إمام الناس وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل عليه السلام وقادة العرب. فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوّخها الإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عدوانه، فدخلوا في دين الله تعالى أفواجًا كما قال تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[2].

(1) (انظر السيرة النبوية لابن هشام).

(2) (سورة النصر).

ويقول الشيخ الغزالي معقبًا على تلك المرحلة العظيمة: بعد كم بلغ النبي ﷺ هذه المرحلة؟ بعد اثنين وعشرين سنة من الدعاية الحثيثة، والتذكير الدائم، وتحمل الأذى، وكفاح العدوان[1].

إنه درس بليغ.. لكل الناس

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ..﴾[2].

أرأيتَ كيف سارت الدعوة وكيف بدأت وإلى أين انتهت؟ كلا بل لم تنته بعد، (فقد استمرت الدعوة الإسلامية في زمن الخلفاء الراشدين تبليغًا للإسلام وتعليمًا له وتطبيقًا لأحكامه في حياة المسلمين حتى توسعت دائرة انتشار الإسلام توسعًا كبيرًا وامتدت رقعة الدولة الإسلامية..... ثم تابعت انتشارها وامتداداها جغرافيًّا وفكريًّا على السواء، فكان المسلمون يفتحون كل يوم أرضًا جديدة، فيعقبهم العلماء بالفقه والتشريع والحديث والتفسير يشرحون الإسلام ويعلمون الناس قضاياه، فدخلوا فيه عن رضًا وطواعية وحب. ولم تتوقف حركة الدعوة إلى عصرنا هذا)[3].

(1) (فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي).
(2) (سورة النور، الآية: 55).
(3) (انظر المدخل إلى علم الدعوة للبيانوني ص90، 97).

إن لنا في ذلك المثل والعبرة، فلا يغرنك علوّ الباطل وإن نفش ريشه في دنيا الزوال فهو مثلها إلى زوال واندثار، قضى بذلك الملك العدل الجبار، فلئن مالت الراية بنا ساعة فقد ارتفعت وخفقت ساعات وستعود لترفرف وتعلو من جديد، ولئن قويت شوكة المبطلين والمرجفين من حولنا في لحظات ثقيلة ثقل الجبال؛ فقد زحزحتها من قبل وأزالتها قوة الرجال، ولئن تأخر النصر وطال به الأمد؛ فقد كافح نبينا ﷺ سنوات طوال حتى علا صوت الحق وملأ نوره الآفاق. فلنطرح اليأس جانبًا، وليبدأ كلٌّ منَّا من الآن إن أردنا تمكينًا وعزًّا، ليغيرْ كلٌّ منَّا ما بنفسه ويأخذها إلى الأصلح والأقوم، وليقم بتزكيتها وتربيتها على ما يدعو إليه ديننا القويم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[1]، ولنثق بموعود الله لنا، فقد قال رسول الله ﷺ مبشرًا: «ليبلغن هذا الأمر مبلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، يعز بعز الله في الإسلام ويذل به في الكفر»[2].

فلا بد إذًا من نصر آت في يوم لا ريب فيه كما وعد ربنا سبحانه وقال: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾[3].

(1) (سورة الرعد، الآية: 11).

(2) (رواه الحاكم في مستدركه، وقال صحيح على شرط الشيخين).

(3) (سورة الروم، الآيات: 4 – 6).

(8)
الهجرة من العزلة إلى الانفتاح والدعوة

لم تكن الهجرة بالنسبة للمسلمين مجرد انتقال من مكان إلى مكان، ولا طلبًا للأمن أو فرارًا بالنفس فحسب، بل كان لها أبعاد أخرى كثيرة، ونتائج إيجابية عظيمة حوّلتها من محنة إلى منحة، فمن البعد عن الوطن الأمّ إلى القرب من الله ورسوله في وطن جديد، ومن ترك الإخوَة والعشيرة إلى الأخوّة الصادقة في الله؛ حيث الأنصار وإيثارهم الكبير، ومن خسارة أموالهم التي يحبون إلى حُب الآخرة وابتغاء الربح فيها، ومن التجارة مع الناس إلى التجارة مع رب الناس، ومن التعلق بأسباب العيش إلى التوكل على خالق الأسباب ومسببها والأخذ بها أيضًا للعون على تحصيله، فكانت الهجرة كمُزنة حُبلَى مباركة تحمل رغم ثقلها ماء الحياة، وكسحابة سوداء طيبة تحمل مع سوادها الغيث والرحمة، إذ استطاع المسلمون أن يلتقطوا أنفاسهم استعدادًا للسباق الطويل والتنافس الشريف في رياضة الإيمان العظيمة التي تؤهلهم لأداء دورهم الرفيع المُناط بهم، بعد أن هجروا الكفر إلى الإيمان، والجهل إلى العلم، والمعصية إلى الطاعة، والفرقة إلى الوحدة، والبدعة إلى السنة، والاستضعاف إلى القوة والتمكين.

كما كان لهجرتهم أيضًا بُعدٌ آخر عظيم لا يقل أهمية عما سبق، وكم نحن كلنا بحاجة إليه في عصرنا هذا لنشر دعوة الله وإقامتها في القلوب والعقول، ألا وهو الهجرة من العزلة والاستكانة إلى الانفتاح والدعوة؛ حيث رسالة البلاغ التي من أجلها أرسِل رسول الله ﷺ، لذا فإن الخير بكل مقاييسه كان في الهجرة من مكة إلى المدينة وإن بدتْ وقتها للناس رأي العين أنها مجرد تركٍ للديار أو هروبٍ وفرار.

رسولٌ للناس كافة.. ورحمة للعالمين

قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1]. وأمره أن يعلنها على الملأ في دعوته فقال له: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾[2]. وها هو ﷺ يقول: «بعثني الله رحمة وهدى للعالمين»[3]. ويقول: «وبعثت إلى الناس كافة»[4].

وحينما بُعث رسول الله ﷺ كان يدعو إلى الله سرًّا، وكان أول من آمن به من الرجال صديقه الحميم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، والذي

---

(1) (سورة سبأ، الآية: 28).

(2) (سورة الأعراف، الآية: 158).

(3) (البيهقي في شعب الإيمان، وقال له شواهد يأخذ بها قوة).

(4) (صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض..، رقم الحديث: 427).

حمل على عاتقه منذ اللحظة الأولى التي أسلم فيها همّ الدعوة، فنشط فيها حتى آمن على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم. وأسلم بعدهم عدد من جميع بطون قريش حتى صاروا أكثر من أربعين نفرٍ، أسلم هؤلاء سرًّا، وكان النبي ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيًا؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية، حتى أمره الله تعالى بالجهر بها فجهر، لكنها لم تكن لتجد طريقها بسهولة وسط محاربة المشركين لكل من يعتنق الدين الجديد أو يدعو إليه.

دين عالمي.. ودعوة عالمية

وإذا كان المسلم قبل الهجرة يخشى من إظهار دينه حتى لا يعرّض نفسه للعنت والمشقة، أوالتعذيب والهلاك، أو الفتنة والردّة؛ فأنَّى له أن يدعو الناس إليه، إن هذا ليس بالأمر الهين أو السهل؛ لذا فقد وجد المسلمون بعدها في أرض الهجرة الطيبة مجالًا خصبًا للدعوة إلى الله، ففيها قلوب لينة وآذان صاغية ونفوس عالية، وإن ذلك والله لهو المنبت الحق المناسب لتلك الدعوة، والمأوى الآمن لهذا الدين وأهله، بصحبة نبيهم الداعية الأول ﷺ، حيث صار أهلها من الأنصار والمهاجرين خير الناس بخير الصحبة ورضا الله تعالى عنهم. وغدَتْ المدينة المنورة مكانًا للانطلاق باسم الله وفي سبيل الله لكل داعية إليه آنذاك، يخرج نورها إلى الآفاق مخترقًا الحواجز والحدود ليفتح العقول والقلوب،

وها هو نبي الله ﷺ يفتح لدعوته آفاقًا أخرى جديدة ليصل صوتها حول العالم، ويقرأ رسالته ملوك الأرض وحكامها ومَن لهم الكلمة في شعوبهم، ليحقق بهذا العمل العظيم عالمية هذا الدين وصلاحيته لكل الناس على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم ومستوياتهم وطبقاتهم. (ففي غرة محرم في السنة السابعة من الهجرة؛ كتب النبي ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، واختار من أصحابه رسلًا لهم معرفة وخبرة فكتب كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس ملك مصر، وإلى كسرى ملك فارس، وقيصر ملك الروم، والمنذر بن ساوي حاكم البحرين، وإلى هوذة بن علي صاحب اليمامة، والحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق، وإلى ملك عمان، يدعوهم جميعًا فيها إلى الإسلام)[1] ، ولم يكن ليتيسر فعل ذلك للنبي ﷺ قبل الهجرة والتمكين للمسلمين من قيام دولتهم في المدينة، وما كان لهذا النور أن ينبثق حول العالم وسط اضطهاد المشركين بمكة للرسالة وصاحبها عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وما كان للكلمات الحبيسة في صدور المستضعفين من أصحابه أن تخرج وهي رهن الحبس والسجن والمصادرة؛ أما الآن - فكما ذكر المباركفوري - فقد أبلغ النبي ﷺ دعوته بهذه الكتب إلى أكثر ملوك الأرض فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين، وعرف لديهم باسمه ودينه.

---

(1) (الرحيق المختوم للمباركفوري بتصرف).

منهج الدعوة إلى الله كما علمنا رسول الله ﷺ

لقد بيّن النبي ﷺ لأصحابه أن أمر الدعوة إلى الله ليست مهمته وحده، وإنما عليهم أن يتبعوه في هذا العمل العظيم ويقتدوا به، بل إنه وضع لهم أصول الدعوة وعلمهم المنهج القويم في كيفية ممارستها، فتخرّج في مدرسته المميزة دعاة وأيّ دعاة! وها هو يرسلهم لدعوة الناس وتعليمهم مبادئ الإسلام بعد أن انتشر في ربوع الأرض وصار له كيان ووجود. فأرسل خالد بن الوليد إلى نجران ليدعو من هناك إلى الإسلام ويعلمهم مبادئه وأحكامه، كما أرسل عليًّا - رضي الله عنه - إلى اليمن، وأرسل أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن أيضًا، بثّ كلا منهما إلى طرف من أطرافها، ووصاهما قائلًا: «يسّرا ولا تعسّرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا»[1] وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[2] .

---

(1) (صحيح البخاري، كتاب المغازي، كل مسكر حرام، رقم الحديث: 4088).

(2) (صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم الحديث: 1425).

اعرف دينك.. وعرّف الناس عليه

لقد بدأت الأمة الإسلامية ونشأت على أكتاف رجال عرفوا المطلوب منهم، فلم يتّكل كل واحد منهم على أخيه بُغية الراحة فيضيع العمل بينهما وتضعف الدعوة أو ينضب معينها، بل إن كل فرد من أفرادها عرف أن هذا الدين هو دين الحق وأن الدعوة إليه واجبة على الجميع، كل بما يستطيع؛ فالطرق الموصلة إلى الغاية متعددة كثيرة، أما الغاية فهي واحدة ألا وهي التعريف بالحق والتمكين لدين الله أن ينتشر ويسُود. لقد دعا النبي ﷺ وأصحابه إلى الله بكل السبل الممكنة وقتئذ، دعَوا إليه بالكلمة الطيبة، وبالقدوة الحسنة، وبالمجادلة بالتي هي أحسن، دعَوا إليه على علم وبصيرة، بشَّروا ولم ينفروا، عملوا بما دعوا الناس إليه، استغنوا عما في أيدي الناس بما عند الله من ثواب وأجر، وصبروا على الأذى ولم يضعفوا، قاتلوا في سبيل الله ولم يعتدوا، وكانوا على ثقة من صحة الطريق ويقين من مجيء النصر ولو تأخر بعض الوقت.

إنه درس لي ولك ولكل مسلم وداعية، بل ولكل الناس من أهل الحق وغيرهم، إذ ما ينبغي أن تمر الأحداث بلا عبرة ولا فائدة؛ فدراسة سيرة النبي ﷺ ليست كغيرها، وإنما هي للاتباع والعمل والاقتداء وتقفي الأثر.

الدعوة إلى الله تعالى في ظل العولمة والانفتاح

والآن، بعد أن أصبح العالم قرية صغيرة مفتوحة ومكشوفة، يستطيع أي إنسان أن يتجول في طرقاتها من خلال شبكات الاتصال الميسرة المبثوثة في كل مكان والتي تجدها في كل بيت، وفي كل غرفة، بل وفي كل جَيْب!؛ صار دور العلماء والدعاة إلى الله أصعب، ومسئوليتهم في الدعوة أعظم وجهدهم المطلوب أكبر! والدعوة عبر هذه الوسيلة صالحة لإيصال صوت الحق لمن لا تستطيع الذهاب إليه أو لقاءه عبر العالم كله، ومع ذلك فإنها تحتاج إلى مزيد جهد وتنقيح وتنقية لما يكون فيها من مواد قد تُنشر للتضليل والتشبيط، أو للكيد والصدّ عن دين الله، أو التعرض له في شخص نبينا الكريم ﷺ، وقد تكون عن جهل وقلة علم، إذ ليس كل ما يكتب أو يُقال ويُبث صحيحًا بالضرورة، ومن هنا، كان لا بد من مواكبة هذا التطور واستخدامه كوسيلة فعالة للتعريف بالإسلام وكشف القناع عن الصور الملوثة التي يصورها عنه أعداؤه الحاقدون، كما لا بد أن يكون لها دور في دحض شبهات وحجج المبطلين والمرجفين وإزالتها. والحمد لله تعالى إذ يوجد الآن مواقع إسلامية عدة موثوقة، يدخلها مَن يرغب على شبكات الإنترنت لكنها مع ذلك لا تعادل قطرة من بحر الغثاء المعروض على العالم، أضف إلى ذلك خطورة ذلك الانفتاح السلبي على الشباب المسلم ما لم يكن لديهم قاعدة صلبة من المبادئ والقيم الإسلامية

الأصيلة يرتكزون عليها ويحتمون بها، وهذا أيضًا واجبٌ مهمٌّ من واجبات علماء الأمة الأفاضل، تتطلب الدعوة منهم للقيام به مواكبة التقدم التقني في وسائلها من حيث تطورها وتنوعها واستخدام كل الطرق التي تخدمها وتخدم المدعوّ، وعدم الجمود بها في حيز ضيق الأفق، وكل ذلك لا بد وأن يكون تحت ميزان الشرع وما يوافقه.

نعم للانفتاح الإيجابي على العالم بلا ذوبان

ويُقصد به التعرف على العالم من حولنا وعادات شعوبه ولغاتهم وما يفكرون فيه ويدعون إليه، ومشاكلهم التي يمرون بها، وكل ذلك يصُبّ في خدمة الدعوة إلى الله تعالى. إن نبي الله ﷺ كاتَبَ الملوك وراسلهم في بلادهم، خاطبهم في رسائله وهو يعرف مَن يخاطِب وكيف يخاطبه ويدعوه إلى الله، وكذلك بث أصحابه في الأرض لتعريف غير المسلمين بالإسلام، ولتعليم المسلمين أحكامه ومبادئه، كان ذلك منه تحركًا بالدعوة وعدم حصرها في مكان واحد أو أناس بعينهم؛ لأن دعوة الإسلام لا تعرف الانعزال ولا الجمود؛ فذلك يتنافى مع كونها دعوة عالمية، وقد يتطلب ذلك من الداعية فراق الأهل والوطن للتحرك بالدعوة وخاصة في هذا الزمان الذي تيسرت فيه وسائل التنقل، فهذا معاذ - رضي الله عنه - يستجيب لأمر رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن وقد قُبض رسول الله ﷺ ولا زال معاذ بها داعيًا ومعلمًا، ففي صحيح ابن حبان: لما بعثه رسول الله ﷺ

إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه - معاذ راكب ورسول الله ﷺ تحت راحلته- ؛ فلما فرغ قال: «يا معاذ، إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا! لعلك أن تمرَّ بمسجدي وقبري» فبكى معاذ خَشَعًا لفراق رسول الله ﷺ.

وكأنه ﷺ يعلمنا الدرس؛ فليس للدعوة مكان يحدّها ولا زمان يوقفها، فهي تسير وتنطلق في أرض الله الواسعة، وهي في كل وقت قائمة وواجبة إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، لأن مادة حياة الدعوة دين الله الخالد وشرعه العظيم[1].

لا تتكاسل.. إنها فرصة للحياة

وهذه رسالة.. نقدمها لأنفسنا أولًا، ثم لكل مَن له علينا حق في الله، وهي دعوة خاصة لمزيد من الحياة، إنها إلى الرجل مع أهله، والأم مع أولادها، إلى المعلم في مدرسته والتلميذ في فصله، إلى التاجر في متجره، والعامل في مصنعه، إلى الطبيب في مشفاه، والمهندس في مبناه، نقدمها لكل زوج وزوجة، وأم وأب، وكل راع ومسؤول على هذه الأرض، أن هلمّ إلى العمل ولا تتكاسل، واستعِدْ دورك الرفيع في هذه الحياة، بالاستجابة لنداء الحبيب ﷺ : «بلغوا عني ولو آية»[2]. وها هو نبينا قد بلغ وأنذر وقال «اللهم هل بلغت؟ اللهم اشهد»؛ فكان البلاغ أعظم ما يكون منه ﷺ،

(1) (صحيح ابن حبان، رقم الحديث: 647).

(2) (سبق تخريجه).

فهل وَعَيْنا تبليغه ووصلت الرسالة النبوية إلينا؟ وهل سِرْنا من ورائه نبشّر به وندعو إليه؛ إذ نحن أوْلى الأمم بهذا التبشير؟

ابدأ بنفسك أولاً

هيا انفُض من قلبك حب الهوى وعبودية الأنا؛ لتكون أهلًا لحمل الرسالة إلى الناس، والقيام بالأمر النبوي «بلغوا عني ولو آية». ولِمَ لا تحاول وهي مهمة أشرف الخلق أجمعين عليه الصلاة والسلام، ومهمة العلماء المخلصين، والدعاة العاملين، وكل مسلم غيور يبغي الصلاح لدينه ودنياه، فيا لها من مهمة عظيمة تحتاج إلى عظيم زاد، ويا لعظم دورها لو قمنا بها حق القيام، وما أكبر أثرها ونتائجها لو كان لها رجال! وكأني بحبيبنا ﷺ وهو معنا وبين أظهرنا أنظر إليه بعين قلبي – فداه المهج والأرواح – وقد ارتقى درجات منبره الشريف وهو يتطلع بنظره في حب ورحمة إلى الوجوه المنهكة بالسعي والكدح، ويتفحص بقلبه المعصوم وفراسته الصائبة في شفقة ورأفة تلك النفوس المثقلة بأحمال الخطايا والأوزار، فيهيب بنا جميعًا أن ننفض من قلوبنا حب الهوى وعبودية الأنا والذات، وأن ننهج نهجه ونقتفي أثره في الدعوة إلى الله، وها هو يدعونا جميعًا على اختلاف الطبقات والمستويات، كلّ في مكانه، رجلًا كان المدعو أو امرأة، عالمًا أو متعلمًا، مسافرًا أو مقيمًا، فالدعوة مستمرة إلى يوم الدين، فهل من مجيب؟ إنها دعوة إلى إصلاح الذات ومن بعد ذلك دعوة إلى البلاغ والتبشير والإنذار.

فما عليك إلا أن تبدأ بنفسك، وتكون دائمًا على أهبة الاستعداد لتغييرها إلى الأصلح، والسمو بها إلى الأنفع، لتضعها حيث أراد الله لها واختار من الخيرية التي فضلت بها، والوسطية التي اختصت بها بعيدًا عن الغلوّ والتفريط، وذلك بالانضمام إلى تلك الأمة العظيمة التي لا ولن تموت وإن طال الأمد لأنها الأمة الوسط التي تُدعَى للشهادة على الناس، ومن كان شاهدًا على غيره فأنى له أن يأفل أو يغيب؟! قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1] ولن يكون ذلك إلا بالالتزام بدستورها العظيم، ودفع أقساط وافرة من الوفاء والثبات على بنوده مدى الحياة، للعودة إلى معين الفطرة النظيف الطاهر بعد أن شُوّه بأدران المعاصي والذنوب، واختلطت بمادته النقية شوائب الهوى والوهن. ألا تسمع قوله الشريف: «أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فقد رضي به؛ فاحذروه أيها الناس على دينكم»[2]. فهل أخذت حذرك وتحصنت بالله من الشيطان الرجيم؟ ها هو حبيبك ﷺ يبين لك الطريق؛ فيقول: «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به؛ فلن تضلوا أبدًا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ»[3]. فهل سلكت طريق النجاة ذاك؟

(1) (سورة البقرة، الآية: 143).

(2) (أحكام القرآن، ابن العربي، وصححه)

(3) (المستدرك على الصحيحين، كتاب العلم، خطبته ﷺ في حجة الوداع، ج1، رقم الحديث: 324).

أهم المراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: المراجع الورقية:

1 – البدعة وأثرها السيىء في الأمة: للشيخ سليم الهلالي، ط1، 2001م، الدمام، دار ابن القيم.

2 – تهذيب مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية، هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي، 1981م، القاهرة، المكتبة القيمة.

3 – جامع العلوم والحكم: للشيخ ابن رجب الحنبلي، ط1، 2002م، القاهرة، دار الفجر للتراث.

4 – الداء والدواء، لابن قيم الجوزية، تحقيق عصام الدين الصبابصي، 2004م، القاهرة، دار الحديث.

5 – دراسة في السيرة الدكتور عماد الدين خليل، ط2، 2004 بيروت، دار النفائس.

6 – الرحيق المختوم للشيخ صفي الدين المباركفوري، ط6، 2004م، الرياض، دار السلام للنشر والتوزيع.

7 – عظماء الإسلام، لمحمد سعيد مرسي، 2002م، القاهرة، مؤسسة اقرأ.

8 – فقه السيرة الشيخ محمد الغزالي، ط7، القاهرة، دار الكتب الحديثة.

9 – فقه السيرة، الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ط11، 1991م، دمشق، دار الفكر.

10 – منتقى حياة الصحابة، الشيخ الكاندهلوي. ترتيب عبد المنعم سكران وعاصم القريوتي، 1993م، دمشق، دار الفيحاء.

11 – مختصر ابن كثير للصابوني، الشيخ محمد علي الصابوني، ط7، 1981م، بيروت، دار القرآن الكريم.

12 – مؤمنات لهن عند الله شأن، تأليف الدكتور محمد بكر إسماعيل، ط1، 2001م، القاهرة، دار المنار.

13 – المدخل إلى علم الدعوة، للدكتور محمد أبو الفتح البيانوني، ط2، 2011م، بيروت، مؤسسة الرسالة.

14 – موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ. إعداد مجموعة من المختصين، 2006م، جدة، دار الوسيلة.

15 – الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، محمد

بن سعيد بن سالم القحطاني، ط3، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع.

16 - وقفات تربوية مع السيرة النبوية، جمع وترتيب أحمد فريد، ط1، 1993م، الإسكندرية، دار ابن القيم.

ثالثًا: المراجع الالكترونية:

1 - المكتبة الإسلامية على شبكة إسلام ويب: أخذ منها:

- تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف.
- تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر.
- تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار طيبة، سنة النشر: 2002م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون.
- تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، دار ابن كثير، سنة النشر 1986م.
- تفسير الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة العبيكان، سنة النشر 1998 م.
- السيرة النبوية لابن هشام.
- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (ذكرى الهجرتين الأولى والثانية).

- الروض الأنف للسهيلي.
- كشف الخفاء للعجلوني.

2 - موسوعة الحديث، موقع الإسلام الدعوي والإرشادي:

أخذ منها المراجع الآتية:

- صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري. دار ابن كثير، اليمامة، بيروت.
- صحيح مسلم، أبو الحسين محمد بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبوعبد الله القزويني. دار الفكر، بيروت.
- مسند أحمد، أحمد بن حنبل. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2.
- موطأ مالك، مالك بن أنس، ط1، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان.
- سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- سنن ابن ماجه بشرح السندي، محمد بن عبد الهادي السندي، دار الجيل بيروت.
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر.
- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، 1995م، دار الكتب العلمية.

3 - المكتبة الوقفية:

أخذ منها:

- التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، ط8، 2000م، ج2.

4 - المكتبة الشاملة:

أخذ منها:

- الرسالة التبوكية، (زاد المهاجر إلى ربه) للإمام ابن القيم تحقيق د. محمد جميل غازي، جدة، مكتبة المدني.

5 - الدرر السنية: ومنها:

- الموسوعة الحديثية.

6 - فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء:

- من الفتوى رقم 2577.

فهرس المحتويات